قصص جحا

كامل كيلاني

برميل العسل



نشر

قصص جحا

كامل كيلاني

برميل العسل

الشركة التونسية للتوزيع

1978

« جُحا » فِي بِلادِ الْعالَمِ [1]

١ — « خُرافَةُ » وَ « جَحْوانُ »

مُنْذُ خَمْسَةَ عَشَرَ قَرْنًا - تَنْقُصُ قَلِيلًا - وُلِدَ « خُرافَةُ » : ذٰلِكَ الْقاصُّ الْعَرَبِيُّ الْبارِعُ الْمُخَضْرَمُ [2] ، الَّذِي ذاعَتْ أَسْمارُهُ الشّائِقَةُ فِي الْجاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلامِ ، وَما زالَ يَتَناقَلُها النّاسُ مِنْ عَصْرٍ إِلَى عَصْرٍ ، مَعْزُوَّةً إِلَيْهِ حِينًا ، وَإِلَى غَيْرِهِ أَحْيانًا : بَيْنَ أَمِينٍ فِي رِوايَتِهِ وَمُتَزَيِّدٍ ، وَمُبْدِعٍ فِي إِضافَتِهِ وَمُقَلِّدٍ .

عاصَرَ « خُرافَةُ » - فِيمَنْ عاصَرَ - « جَحْوانَ » الصَّحابِيَّ : جَدَّ « أَبِي الْغُصْنِ عَبْدِ اللهِ دُجَيْنِ بْنِ ثابِتٍ » ؛ الْمُلَقَّبِ بِـ « جُحا » : شَيْخِ الْفُكاهَةِ الشَّرْقِيَّةِ الْباسِمَةِ السّاحِرَةِ ، وَرَمْزِ الدُّعابَةِ الْفَلْسَفِيَّةِ الْجادَّةِ السّاخِرَةِ .

كانَ « خُرافَةُ » - فِيما يَقُولُ عارِفُوهُ - طَرّافًا وَصّافًا [3] ، بارِعَ الْمَقالِ ، رائِعَ الْخَيالِ .

كانَ يَرْوِي لِلنّاسِ عَجائِبَ مِنْ أَخْبارِ الْعَفارِيتِ وَالْجِنِّ ، وَطَرائِفِهِمْ وَمُلَحِهِمْ ، وَيَقُصُّ عَلَيْهِمْ مِنْها غَرائِبَ ، يَزْعُمُ لِمُعاصِرِيهِ أَنَّها حَدَثَتْ لَهُ .

(١) نثبت هذا الفصل ، كما أثبتناه فى الطبعات السابقة .

(٢) الذى عاش فى العصرين : الجاهلى ، والإسلامى .

(٣) جذاب الحديث ، دقيق الوصف .

٢ — حَدِيثُ « خُرافَةَ »



زَعَمَ فِي بَعْضِ ما رَواهُ : أَنَّهُ لَقِيَ - فِي إِحْدَى رِحْلاتِهِ - ثَلاثَةً مِنَ الْجِنِّ ؛ فَسَبَوْهُ (أَسَرُوهُ) ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي أَمْرِهِ .

قالَ الْجِنِّيُّ الْأَوَّلُ : « نَعْفُو عَنْ هٰذا الرَّجُلِ . »

قالَ الثّانِي : « نَقْتُلُهُ . »

قالَ الثّالِثُ : « نَجْعَلُهُ عَبْدًا لَنا . »

* * *

بَيْنا هُمْ يَتَشاوَرُونَ فِي أَمْرِهِ ، وَرَدَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ .

قالَ : « السَّلامُ عَلَيْكُمْ . »

قالُوا : « عَلَيْكَ السَّلامُ . »

قالَ : « مَنْ أَنْتُمْ ؟ »

قالُوا : « نَفَرٌ(١) مِنَ الجِنِّ ؛ أَسَرْنا هٰذا ، فَنَحْنُ نَأْتَمِرُ(٢) فِي أَمْرِهِ . »

قالَ : « إِنْ حَدَّثْتُكُمْ حَدِيثًا عَجِيبًا ؛ أَتُشْرِكُونَنِي فِيهِ ؟ »

قالُوا : « نَعَمْ . »

* * *

حَدَّثَهُمْ بِقِصَّةِ الْبِئْرِ الْمَسْحُورَةِ(٣) . فَأَعْجَبَتْهُمْ .

قالُوا لَهُ : « أَنْتَ شَرِيكُنا فِي هٰذا الرَّجُلِ . »

* * *

بَيْنا هُمْ يَتَشاوَرُونَ ، وَرَدَ عَلَيْهِمْ ثَوْرٌ يَجِدُّ فِي سَيْرِهِ ، وَرَجُلٌ يَجْرِي فِي أَثَرِهِ .

لَمّا رَآهُمْ وَقَفَ وَسَلَّمَ .

رَدُّوا عَلَيْهِ مِثْلَ رَدِّهِمْ عَلَى صاحِبِهِمْ .

(١) جماعة . (٢) تشاور .

(٣) ستمر بك القصة فى مكانها من هذا الفصل .

قالَ : « إِنْ حَدَّثْتُكُمْ بِحَدِيثٍ عَجِيبٍ ؛ أَتُشْرِكُونَنِي فِيهِ ؟ »

قالُوا : « نَعَمْ . »

* * *

قَصَّ عَلَيْهِمْ قِصَّتَهُ مَعَ الثَّوْرِ .

قالُوا : « إِنَّ هٰذا لَعَجِيبٌ . أَنْتَ شَرِيكُنا . »

* * *

بَيْنا هُمْ يَتَشاوَرُونَ ؛ وَرَدَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ ، وَخَلْفَهُ غُلامٌ عَلَى فَرَسٍ آخَرَ .

سَلَّمَ ، كَما سَلَّمَ صاحِباهُ .

رَدُّوا عَلَيْهِ ، كَرَدِّهِمْ عَلَى صاحِبَيْهِ .

سَأَلَهُمْ ، فَأَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ .

قالَ : « إِنْ حَدَّثْتُكُمْ بِحَدِيثٍ عَجِيبٍ ؛ أَتُشْرِكُونَنِي فِيهِ ؟ »

قالُوا : « نَعَمْ . »

* * *

قَصَّ عَلَيْهِمْ قِصَّتَهُ مَعَ الْفَرَسَيْنِ وَالْغُلامِ .

قالُوا : « هٰذا أَغْرَبُ شَيْءٍ سَمِعْناهُ . أَنْتَ شَرِيكُنا . »

اجْتَمَعَ أَمْرُهُمْ ، فَأَعْتَقُوا « خُرافَةَ » .

٣ — بَعْدَ مَوْتِ « خُرافَةَ »

عاشَ « خُرافَةُ » ـ كَما قُلْتُ لَكَ ـ فِي نِهايَةِ الْجاهِلِيَّةِ ، وَصَدْرِ الإِسْلامِ .

أُعْجِبَ بِحَديثِ « خُرافَةَ » كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ .

اِشْتَدَّتْ فِتْنَتُهُمْ بِهِ ؛ حَتَّى نَسَبُوا إِلَيْهِ كُلَّ طَريفٍ مِنَ الْحَديثِ ، تَسْتَرْعِي الْأَسْماعَ غَرابَتُهُ ، وَتَبْهَجُ النُّفُوسَ بَراعَتُهُ .

ظَلَّ ذٰلِكَ دَأْبَهُمْ[1] إِلَى الْيَوْمِ .

أَصْبَحَ اسْمُ « خُرافَةَ » مُرادِفًا لِكُلِّ حَديثٍ خَيالِيٍّ جَذّابٍ لا حَقيقَةَ لَهُ .

كادَ النّاسُ يَنْسَوْنَ أَنَّ « خُرافَةَ » عَلَمٌ عَلَى شَخْصٍ بِعَيْنِهِ : عَرَفَ النّاسَ وَعَرَفُوهُ ، وَأَلِفَهُمْ وَأَلِفُوهُ[2] .

* * *

مَضَى الْقَرْنُ الْأَوَّلُ ، وَمَضَى مَعَهُ « خُرافَةُ » وَمُعاصِرُوهُ .

اِنْطَوَى بِانْطِوائِهِ بارِعٌ ذَكِيٌّ حَدِثٌ[3] .

لَمْ يَبْقَ لَنا مِنْ رَوائِعِهِ الْمُسْتَفيضَةِ[4] إِلّا سُطُورٌ . كَأَنَّما بَقِيَتْ عَلَى الدَّهْرِ ، وَغالَبَتْ أَحْداثَهُ[5] ؛ لِتُشْعِرَنا بِمِقْدارِ ما مُنِيَ[6] بِهِ الْقَصَصُ الْعَرَبِيُّ مِنْ فَجيعَةٍ ؛ بِفِقْدانِ أَمْثالِ هٰذِهِ الْكُنُوزِ الْفِكْرِيَّةِ .

(١) عادتهم وشأنهم .
(٢) أنس بهم وأحبهم ، كما أنسوا به وأحبوه .
(٣) حسن الحديث .
(٤) أحاديثه الذائعة التي يعجب الناس بحسنها .
(٥) نوبه ومصائبه .
(٦) ما ابتلى .

٤ — « جُحا » الْعَرَبِيُّ

فِي نِهايَةِ الْقَرْنِ الْهِجْرِيِّ الْأَوَّلِ وَأَوائِلِ الْقَرْنِ الثّاني ، طالَعَنا الْحَظُّ السَّعيدُ بِهَدِيَّةٍ مِنْ أَنْفَسِ الْهَدايا الْفَنِّيَّةِ الَّتي يَعْتَزُّ بِها عالَمُ الْفُكاهَةِ وَالْمَرَحِ .

طالَعَنا بِشَيْخِ السُّخْرِيَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَإِمامِ الْفُكاهَةِ الشَّرْقِيَّةِ : « أَبِي الْغُصْنِ : دُجَيْنِ بْنِ ثابِتٍ » الْمُلَقَّبِ بِـ « جُحا » .

رَأَى السَّيِّدُ « جُحا » ـ فِيمَنْ رَآهُ مِنْ أَفْذاذِ مُعاصِرِيهِ ـ « أَبا مُسْلِمٍ الْخُراسانِيَّ » .

كانَتْ أُمُّ « جُحا » تَخْدُمُ « أُمَّ سُلَيْمٍ بِنْتَ مِلْحانَ » والِدَةَ « مالِكِ بْنِ أَنَسٍ » : راوِيَةِ الْحَديثِ الْمَعْرُوفِ .

لَقِيَ السَّيِّدُ « جُحا » مِنَ التَّقْديرِ وَالْإِعْجابِ ـ فِي الْقَرْنِ الثّاني مِنَ الْهِجْرَةِ ـ مِثْلَ ما لَقِيَ سابِقُهُ « خُرافَةُ » مِنْ قَبْلُ .

لَمْ يَقِلَّ شَأْنُهُ عَنْ صاحِبِهِ ، تَقْديرًا وَإِعْجابًا ، وَنَباهَةَ ذِكْرٍ وَبُعْدَ صيتٍ . أُعْجِبَ النّاسُ بِأُسْلُوبِهِ السَّهْلِ الْمُمْتَنِعِ فِي فَهْمِ الْحَياةِ ؛ كَما أُعْجِبُوا بِما سَمِعُوا بِهِ مِنْ طَرائِفِهِ وَمُلَحِهِ .

اِشْتَدَّ افْتِتانُهُمْ بِـ « جُحا » .

خَلَعُوا لَقَبَهُ ـ كَما خَلَعُوا لَقَبَ سابِقِهِ « خُرافَةَ » ، مِنْ قَبْلُ ـ عَلَى كُلِّ عَجيبٍ مِنَ الْقَوْلِ ، وَطَريفٍ مِنَ الْحَديثِ .

أَصْبَحَ لِلْقَصَصِ الْجُحَوِىِّ خَصائِصُهُ وَمِيزاتُهُ ؛ كَما أَصْبَحَ لِلْقَصَصِ الْخُرافِىِّ - مِنْ قَبْلِهِ - بَدائِعُهُ وَخَيالاتُهُ .

٥- الْفَنُّ الْجُحَوِىُّ

اِشْتَدَّ إِعْجابُ بَعْضِ النَّاسِ بِالسَّيِّدِ « جُحا » ؛ فَلَقَّبَ بِهِ وَلَدَهُ .

اِفْتَتَنَ بِطَرائِفِهِ آخَرُونَ ، فَأَضافُوا إِلَيْها كَثِيرًا مِنْ مُخْتَرَعاتِهِمْ ، وَفُنُونِ مُبْتَدَعاتِهِمْ .

كَذٰلِكَ صَنَعُوا بِقَصَصِ : « أَلْفِ لَيْلَةٍ » .

أَضافُوا إِلَيْها جَمْهَرَةً مِنْ طَرائِفِ « خُرافَةَ » وَ « جُحا » ، كَما أَضافُوا إِلَيْهِما جَمْهَرَةً مِنْ قِصَصِها .

* * *

تَعَذَّرَ التَّمْيِيزُ بَيْنَ الْأَصْلِ وَالتَّقْلِيدِ . لا سِيَّما بَعْدَ أَنِ اخْتَلَطَتْ فُكاهاتُ « جُحا » بِفُكاهاتِ « الشَّعْبِىِّ » وَ « أَبِى الْعَيْناءِ » وَ « أَشْعَبَ » وَ « أَبِى دُلامَةَ » وَ « أَبِى الْعَنْبَسِ » وَ « الْغاضِرِىِّ » وَ « الْجَمَّازِ »(١) وَ « الْحَمْدُونِىِّ » وَ « الْبُهْلُولِ » ، وَمَنْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَعْلامِ الدُّعابَةِ(٢) الْعَرَبِيَّةِ .

* * *

(١) الجماز معناها الوثاب ، لقب الشاعر الفكه : محمد بن عبد الله بن حماد بن عطاء البصرى.
(٢) الفكاهة .

أَضافُوا إِلَى فُنُونِهِ طائِفَةً مِمَّـا رَواهُ الرُّواةُ عَنْ « بُخَلِ مادِرٍ » وَ « أَبِى الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِىِّ » وَ « سَهْلِ بْنِ هارُونَ » وَ « ثُمامَةَ بْنِ أَشْرَسَ » .

* * *

زادَ عَلَيْها الْمُتَزَيِّدُونَ جَمْهَرَةً مِنْ فُكاهاتِ الْحَمْقَى وَالْمُغَفَّلِينَ وَالشَّحَّاذِينَ وَالطُّفَيْلِيِّينَ مِنْ أَمْثالِ : « هَبَنَّقَةَ » وَ « كَمِيشٍ » وَ « بَنانٍ الْمُوَسْوِسِ » وَ « أَبِى حَيَّةَ النُّمَيْرِىِّ » وَ « الْحَمَوِىِّ » وَ « أَبِى الْأَعَزِّ » وَ « أَبِى الْعِبَرِ » وَ « عُرْوَةَ بْنِ مَرْثَدٍ » وَ « فِنْدٍ »(١) وَ « طُفَيْلٍ » وَ « ابْنِ دَرَّاجٍ » وَ « باقِلٍ » وَ « ابْنِ الْحَجَّاجِ » وَ « الْأَحْنَفِ الْعُكْبَرِىِّ » وَ « أَبِى الشَّمَقْمَقِ » وَ « أَبِى فِرْعَوْنَ » وَ « أَبِى دُلَفٍ الْخَزْرَجِىِّ » ، وَأَضْرابِهِمْ :

فَتَجَمَّعَتْ أَشْتاتُهُمْ فِى واحِدٍ   إِلَّا يَكُنْهُمْ أُمَّةً ، فَيَكادُ !

(١) « فند » من أهل المدينة ، كان مولى لـ « عائشة : بنت سعد بن أبى وقاص » .
من غرائبه أن مولاته « عائشة » بعثته يقبس لها نارا .
أتدرى ماذا صنع ؟
توجه إلى مصر . أقام بها عاما . ثم جاءها بنار .
لما اقترب من بيتها جرى مسرعا ، فعثر . تبدد الجمر ، فقال : « تعست العجلة » .
وفى هذا يقول شاعر من الظرفاء :

ما رأينا لـ « غراب » مثلا   إذ بعثناه يجى بالمشمله
غير « فند » أرسلوه قابسا   فثوى حولا ، وذم العجله

والمشملة (بكسر أولها) : كساء دون القطيفة ، يشتمل بها .

أَسْنَدَ النَّاسُ إِلَى « جُحا » كُلَّ غَرِيبٍ - مِنَ الْمُلَحِ - وَعَجِيبٍ .
كادَ لَقَبُهُ يُصْبِحُ - كَما أَصْبَحَ لَقَبُ « خُرافَةَ » - عَلَمًا عَلَى
فَنٍّ بِعَيْنِهِ مِنْ فُنُونِ الْقَوْلِ ، بَعْدَ أَنْ كانَ عَلَمًا عَلَى شَخْصٍ
بِعَيْنِهِ مِنْ أَفْذاذِ النَّاسِ .

٦ — « جُحا » التُّرْكِيُّ

جاءَ الْقَرْنُ الثَّامِنُ الْهِجْرِيُّ .. حَمَلَ مَعَهُ - فِيمَنْ حَمَلَ - عَلَمًا آخَرَ
مِنْ أَعْلامِ الْفُكاهَةِ الشَّرْقِيَّةِ ، وَإِمامًا مِنْ أَئِمَّةِ الدُّعابَةِ التُّرْكِيَّةِ ،
هُوَ الْأُسْتاذُ : نَصْرُ الدِّينِ .



وُلِدَ فِي « سِيُورِى حِصارَ » : أَحَدِ بِلادِ « الْأَناضُولِ » .

عاشَ فِي عَهْدِ السُّلْطانِ « أُورْخانَ » .

عَمِرَ - فِيما يَقُولُونَ - زُهاءَ سِتِّينَ عامًا .

كانَتْ أَكْثَرُ كَلِماتِهِ فِيما يَقُولُ بَعْضُ مُرِيدِيهِ مِنَ السَّهْلِ الْمُمْتَنِعِ .

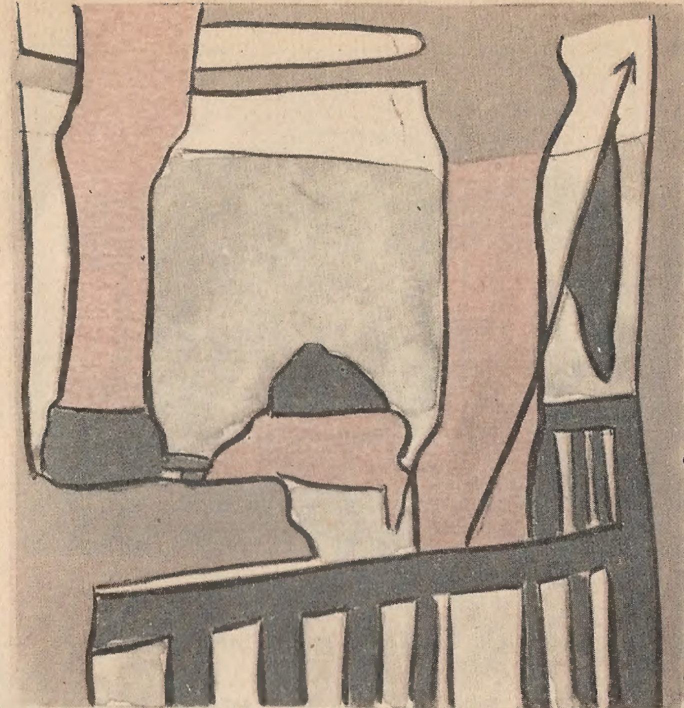
كانَ أُسْلُوبُهُ رَفِيقًا مَسْتُورًا بِنِقابٍ مُعَطَّرٍ شَفَّافٍ ، يَمْلَأُ
النَّفْسَ بَهْجَةً وَانْشِراحًا .



كانَ يَتَمَيَّزُ بِما وَهَبَهُ اللهُ مِنْ أَصالَةٍ فِي التَّفْكِيرِ ، وَهِدايَةٍ
إِلَى الصَّوابِ ، وَبَراعَةٍ فِي الْجَوابِ .

* * *

مِمَّا اخْتارَهُ مُرِيدُوهُ - مِنْ مَأْثُورِ حِكَمِهِ - قَوْلُهُ :
« تَعَلَّمُوا . وَلْيُعَلِّمْ مَنْ يَعْلَمُ مَنْ لا يَعْلَمُ ! »
وَقَوْلُهُ :
« ما أَطْيَبَ أَهْلَ « كُوتاهِيَةَ » ، وَما أَكْرَمَ نُفُوسَهُمْ !
يَضْرِبُونَ الْإِنْسانَ قَبْلَ أَنْ يُقَدِّمُوا لَهُ الْحَلْوَى .
ثُمَّ لا يَكُفُّونَ عَنْ ضَرْبِهِ وَهُوَ يَأْكُلُها ! »
وَرَدُّهُ عَلَى سَخِيفٍ كانَ يَسْأَلُهُ :
« ماذا يُصْنَعُ بِالْقَمَرِ بَعْدَ انْقِضاءِ الشَّهْرِ ؟ »



أجابَهُ « نَصْرُ الدِّينِ » مُتَهَكِّمًا :

« أَلا تعرِفُ أنَّ الْقَمَرَ يُقَسَّمُ ؛ لِيُصْنَعَ مِنْهُ نُجُومٌ ! »

وَمِنْ دُعاباتِهِ السَّاخِرَةِ قَوْلُهُ : « تَفَضَّلِي ، يا حُلَّتِي ، لِلطَّعامِ ! »

* * *

حَدَّثَ عارِفُوهُ أَنَّهُ كانَ يَخْطُبُ فِي « سِيُورِي حِصارَ » وَيَدْرُسُ ، وَيَؤُمُّ الْجَماعَةَ فِي وِلاياتِ : « كُوتاهِيَةَ » وَ « أَنْقَرَةَ » وَ « بُورْصَةَ » .

ساحَ فِي هٰذِهِ الْجِهاتِ ، وَجالَ ، وَنَبُهَ شَأْنُهُ فِيها .

* * *

حانَتْ وَفاتُهُ فِي « آقْ شِهِر » وَمَعْناها : الْبَلَدُ الأَبْيَضُ .

٧ – الْباطِشانِ

لَقِيَ « نَصْرُ الدِّينِ » – فِيما يَزْعُمُونَ – الْباطِشَ الطَّاغِيَةَ : « تَيمُورْلَنْك » ، كَما لَقِيَ « أَبُو الْغُصْنِ جُحا » – فِي عَصْرِهِ – الْباطِشَ السَّفَّاحَ : « أَبا مُسْلِمٍ الْخُراسانِيَّ » .

عاشَ كِلاهما فِي عَصْرِ قائِدٍ جَبَّارٍ ، مُتَعَطِّشٍ لِلدِّماءِ ، عاصِفٍ بِالْأَقْوِياءِ والضُّعَفاءِ .

٨ – « أَبُو الْغُصْنِ » وَ « نَصْرُ الدِّينِ »

ذاعَ أَمْرُ الْأُسْتاذِ « نَصْرِ الدِّينِ » . راجَتْ دُعاباتُهُ . لَقِيَ مِنَ الْحَظِّ مِثْلَ ما لَقِيَ صاحِباهُ : « خُرافَةُ » وَ « أَبُو الْغُصْنِ » مِنْ قَبْلُ .

* * *

لَقَبُ « أُسْتاذٍ » يُقابِلُهُ بِالتُّرْكِيَّةِ لَقَبُ : « خُوجَة » .

شَدَّ ما تَقارَبَ اللَّقَبانِ ، وَتَشابَهَ الرَّجُلانِ !

كانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يُحَوِّلَ النَّقَلَةُ لَقَبَ « خُوجَة » إِلَى لَقَبِ « جُحا » .

لَمْ يَلْبَثِ الْأُسْتاذُ « نَصْرُ الدِّينِ » أَنِ اسْتَأْثَرَ(١) – بَعْدَ مَوْتِهِ – بِلَقَبِ « جُحا » ... لَمْ يَقِفْ « نَصْرُ الدِّينِ » عِنْدَ هٰذا الْحَدِّ .

كادَ يَسْتَأْثِرُ بِكُلِّ طَرائِفِ « أَبِي الْغُصْنِ » وَمُلَحِهِ .

كادَ لا يُبْقِي لَهُ مِنْها شَيْئًا ، جَلَّ أَوْ حَقُرَ .

(١) اختص وانفرد .

أَعْلَنَتْ بَعْضُ الْمَجَلَّاتِ مُكافَأَةً لِمَنْ يَبْعَثُ إِلَيْها
بِطَرِيقَةٍ مَرْوِيَّةٍ[1] عَنِ الْأُسْتاذِ : « نَصْرِ الدِّينِ » أَوْ « نَصْرِ الدِّينِ خُوجَة »
أَوْ « جُحا التُّرْكِيِّ » .

راحَ النَّاسُ يُنَقِّبُونَ[2] عَنْ نَفائِسِ الْمُلَحِ ، وَيُغِيرُونَ عَلَيْها[3] .
نَسَبُوا إِلَى « نَصْرِ الدِّينِ » جَمْهَرَةً مِنَ الطَّرائِفِ الْعَرَبِيَّةِ وَغَيْرِها .

فِي الشَّرْقِ : لَمْ يَسْلَمْ مِنْ غاراتِ الْمُغِيرِينَ كِتابُ « كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ »
وَقِصَصُ « أَلْفِ لَيْلَةٍ » وَ « نَوادِرُ الْبُخَلاءِ والْحَمْقَى » وَأَضْرابُها .

فِي الْغَرْبِ لَمْ تَسْلَمْ مِنْ غاراتِهِمْ قِصَصُ « بُوكاتْشُو » وَطَرائِفُ الْكَذَّابِ
الْأَلْمانِيِّ ، « فُونْ مُنْشهَوْزِنْ »[4] وَغَرائِبُ الْأَفَّاكِ الْبُرْتُغالِيِّ « بِنْتُو »[5] .

أَمَّا قِصَصُ « أَبِي الْغُصْنِ دُجَيْنِ بْنِ ثابِتٍ » ، فَلَمْ يَكَدْ يَنْجُو
مِنْ طَرائِفِها شَيْءٌ .

تَنازَعَتِ الْأُمَمُ كَثِيرًا مِنَ الْقِصَصِ الْجُحَوِيِّ : أَصِيلًا وَمَزِيدًا ،
وافِيًا وَناقِصًا ، أَمِينًا وَمُحَرَّفًا ، مُبْدَعًا وَمُشَوَّهًا .

ذاعَتِ الطَّرائِفُ الْجُحَوِيَّةُ بَيْنَ الْأُمَمِ . أَسْنَدَتْها كُلُّ أُمَّةٍ إِلَى « جُحاها »!

---

(١) محكية .   (٢) يبحثون .   (٣) يسلبونها .
(٤) كارل فردريش فون منشهوزن .
ولد فى بودنيسفيرد بـ « هانوفر » عام ١٨١٣ ومات فى « جوتنج » عام ١٨٨٦ .
(٥) فرديناند مندس بنتو (١٥٠٩ — عام ١٥٨٣م) مغامر برتغالى معروف .
لقى عجائب من المغامرات فى البحر خلال واحد وعشرين عاما ، غرقت فى أثنائها سفائنه خمس مرات . وقع فى الأسر ثلاث عشرة مرة ، وبيع بيع العبيد سبع عشرة مرة .
وكان شبيها بالبارون « منشهوزن » فى أكاذيبه .

٩ — مِرْآةُ الْبُومَةِ

فِي « تُرْكِيا » أُسْنِدَ الْقِصَصُ الْجُحَوِيُّ ـ كَما رَأَيْتَ ـ إِلَى
« جُحا التُّرْكِيِّ » مَعْزُوًّا (مَنْسُوبًا) إِلَى الْأُسْتاذِ : « نَصْرِ الدِّينِ » .

أَبْدَعَ الشَّرْقُ ـ فِيمَنْ أَبْدَعَ مِنْ أَعْلامِ الْفُكاهَةِ الشَّرْقِيَّةِ ـ هٰذَيْنِ
الْجُحَيْنِ الْفاتِنَيْنِ : الشَّيْخَ « أَبا الْغُصْنِ » ، والْأُسْتاذَ « نَصْرَ الدِّينِ » .

إِذا تَرَكْنا الشَّرْقَ واتَّجَهْنا إِلَى الْغَرْبِ ، رَأَيْنا فِي « أَلْمانِيا » شَخْصِيَّةً
جُحَوِيَّةً ثالِثَةً تَظْهَرُ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعَ عَشَرَ الْمِيلادِيِّ ، فِي الْعَصْرِ
الَّذِي ظَهَرَتْ فِيهِ شَخْصِيَّةُ « جُحا » التُّرْكِيِّ : الْأُسْتاذِ « نَصْرِ الدِّينِ » .

شَخْصِيَّةٌ مَرِحَةٌ عَجِيبَةٌ شَدِيدَةُ الشَّبَهِ بِشَخْصِيَّةِ « جُحا التُّرْكِيِّ » ،
تَكادُ تَكُونُ نُسْخَةً مُكَرَّرَةً ، إِنْ لَمْ تَكُنْها عَلَى التَّحْقِيقِ .

مِنْ عَجائِبِ الْأَقْدارِ أَنْ يَنْشَأَ جُحا الْأَلْمانِ ، كَما نَشَأَ صاحِبُهُ
الْأُسْتاذُ « نَصْرُ الدِّينِ » : جُحا الْأَتْراكِ ، فَلَّاحًا يَحْرُثُ الْأَرْضَ .

اِسْمُ جُحا الْأَلْمانِيِّ : « تِلْ » .

وَلَقَبُهُ « أُويلِنْ شْبِيجِلْ » . وَمَعْناهُ : « مِرْآةُ الْبُومَةِ » .

لَقَبٌ ـ كَما تَرَى ـ بارِعُ الدَّلالَةِ ، رائِعُ الْمَغْزَى .

الْبُومَةُ بِرَغْمِ إِجْماعِ النَّاسِ ـ مَهْما تَبايَنَتْ أَجْناسُهُمْ ، واخْتَلَفَتْ
عُصُورُهُمْ ، عَلَى قُبْحِها ، والنُّفُورِ مِنْها ، واسْتِنْكارِ صُورَتِها ـ لا تَرَى
فِي الْمِرْآةِ إِلَّا وَجْهًا طَبِيعِيًّا ، لَيْسَ بِهِ ما يُنْكَرُ ، وَلا فِيهِ ما يُعابُ .



لَوْنٌ مُبْتَدَعٌ لِلتَّعْبيرِ
عَنِ الحِكْمَةِ المَأْثورَةِ
الخالِدَةِ :

« المَرْءُ لا يَرَى
عَيْبَ نَفْسِهِ » !

* * *

شاءَ بَعْضُ الباحِثينَ
أَنْ يُمَيِّزَ الفَلّاحَ
الأَلْمانيَّ الذَّكيَّ :
« تِلْ » بِقِسْطٍ مَوْفورٍ
مِنَ الغَفْلَةِ .

حَلا لِآخَرينَ أَنْ يَعْزُوا إِلَيْهِ قَليلًا مِنَ الخُبْثِ . اِسْتَدَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى ضيقِ ذِهْنِهِ وَمَوْفورِ غَفْلَتِهِ ، بِما يُؤْثَرُ عَنْهُ مِنَ المُغالاةِ في تَطْبيقِ ما يَسْمَعُ تَطْبيقًا كامِلًا ، والوُقوفِ عَلَى مَدْلولِ الأَلْفاظِ الحَرْفيِّ ؛ غَيْرَ مَعْنِيٍّ بِما تَنْطَوي عَلَيْهِ في أَثْنائِها مِنْ دَلالاتٍ : حَقيقيَّةً كانَتْ أَمْ مَجازيَّةً .

اِفْتَنَّ المُتَخَيِّلونَ في نِسْبَةِ كَثيرٍ مِنَ الطَّرائِفِ إِلَيْهِ في هٰذا البابِ ، تُمَثِّلُ - أَكْثَرَ ما تُمَثِّلُ - أَلْوانًا مِنْ آراءِ مُتَخَيِّليها ، وَرُوحَ الدُّعابَةِ الأَصيلَةِ في نُفوسِهِمْ .

لٰكِنْ : أَيُّ الشُّخوصِ الجُحَوِيَّةِ سَلِمَ مِنْ أَمْثالِ هٰذِهِ الغَمَزاتِ ؟!

١٠ — رَأْيُ النُّقّادِ

يَذْهَبُ سَوادُ الباحِثينَ - في غَيْرِ إِسْرافٍ وَلا مُغالاةٍ - إِلَى أَنَّ « مِرْآةَ البومَةِ » كانَ فَلّاحًا ذَكِيًّا مُسْتَقيمَ الفِطْرَةِ .

كانَ يَأْلَمُ لِتَعالي بَعْضِ سُكّانِ المُدُنِ عَلَى أَمْثالِهِ مِنَ الفَلّاحينَ .

كانوا يَحْسَبونَ البَراعَةَ وَقْفًا عَلَى أَهْلِ المُدُنِ .

كانَ يُؤْذيهِ ما يَرَى مِنْ غُرورِهِمْ .

كانوا يَعْجِزونَ عَنْ كِتْمانِ ما يُساوِرُ نُفوسَهُمْ مِنِ احْتِقارٍ لِأَمْثالِهِ ، مَهْما بَلَغَ بِهِمُ الذَّكاءُ .

كانَتْ هٰذِهِ الأَسْبابُ حافِزَةً عَلَى مُقابَلَتِهِمْ بِالمِثْلِ .

لَجَأَ إِلَى طَريقَةٍ فَذَّةٍ في الاِنْتِقامِ .

عَمَدَ إِلَى التَّثَبُّتِ بِحَرْفيَّةِ ما يُلْقَى إِلَيْهِ .

اِسْتَدَلَّ النُّقّادُ عَلَى صِحَّةِ ما ذَهَبوا إِلَيْهِ بِقِصَّتِهِ التّالِيَةِ :

١١ — مَعَ الخَبّازِ

قَدِمَ « مِرْآةُ البومَةِ » عَلَى خَبّازٍ في إِحْدَى المُدُنِ .

أَخَذَ يُؤَدّي عَمَلَهُ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ .

عَبَثًا حاوَلَ أَنْ يُقْنِعَ الخَبّازَ بِذَكائِهِ .

ذاتَ يَوْمٍ خَرَجَ الخَبّازُ لِبَعْضِ شَأْنِهِ ، بَعْدَ أَنْ قالَ لَهُ :

« لَدَيَّ عَمَلٌ هامٌّ يَسْتَدْعي بَقائي خارِجَ المَخْبَزِ . ما أَظُنُّكَ في حاجَةٍ إِلَى مَعونَتي . عَلَيْكَ أَنْ تُنْجِزَ الرُّغْفانَ وَحْدَكَ . »

* * *

أَرادَ « مِرْآةُ الْبُومَةِ » أَنْ يَثْأَرَ لِنَفْسِهِ .

عَزَمَ عَلَى أَنْ يَعْبَثَ بِصاحِبِهِ . تَظاهَرَ بِالْبَلَهِ والْغَفْلَةِ .

سَأَلَ الْخَبّازَ مُتَبالِهًا : « ماذا تُرِيدُنِي أَنْ أَخْبِزَ فِي هٰذا الْيَوْمِ ؟ »

١٢ — بُومٌ وَغِرْبانٌ

ضاقَ صَدْرُ الْخَبّازِ بِما ظَنَّهُ مِنْ غَباءِ صاحِبِهِ .

أَجابَهُ مُتَهَكِّمًا : « اِخْبِزْ لَنا - إِذا شِئْتَ - بُومًا وَغِرْبانًا . »

أَرادَ « مِرْآةُ الْبُومَةِ » أَنْ يُعاقِبَ الْخَبّازَ عَلَى تَهَكُّمِهِ .

أَرادَ أَنْ يُلَقِّنَهُ دَرْسًا لا يُنْسَى .

أَتَعْرِفُ ماذا صَنَعَ ؟ لَمْ يَتَرَدَّدْ فِي تَطْبِيقِ ما قالَ الْخَبّازُ ، تَطْبِيقًا حَرْفِيًّا . عَمَدَ إِلَى الدَّقِيقِ فَخَبَزَهُ .

لَمْ يُسَوِّهِ - فِي هٰذِهِ الْمَرَّةِ - رُغْفانًا . سَوّاهُ بُومًا وَغِرْبانًا !..

* * *

عادَ الْخَبّازُ . اِشْتَدَّتْ حَيْرَتُهُ وَغَضَبُهُ . أَذْهَلَهُ ما رَآهُ .

اِنْهالَ عَلَيْهِ لَوْمًا وَتَعْنِيفًا .

سَأَلَهُ « مِرْآةُ الْبُومَةِ » مُتَغابِيًا :

« ماذا أَغْضَبَكَ ؟ أَلَمْ تَقُلْ لِي ذٰلِكَ ؟

أَلَمْ تَأْمُرْنِي أَنْ أُسَوِّيَ الدَّقِيقَ بُومًا وَغِرْبانًا ؟ »

اِشْتَدَّ هِياجُ الْخَبّازِ !..

قابَلَهُ « مِرْآةُ الْبُومَةِ » بِابْتِسامٍ .

قالَ لَهُ فِي هُدُوءٍ : « هَوِّنْ عَلَيْكَ . لا تَتَمادَ فِي غَضَبِكَ

كَمْ تُقَدِّرُ ثَمَنًا لِما أَتْلَفْتُ مِنْ دَقِيقٍ ؟ »

قالَ الْخَبّازُ : « لا أَقَلَّ مِنْ جُنَيْهَيْنِ ! »

لَمْ يَتَرَدَّدْ « مِرْآةُ الْبُومَةِ » فِي دَفْعِهِما

هَدَأَتْ ثائِرَةُ الْخَبّازِ .

١٣ — فِكْرَةٌ مُوَفَّقَةٌ

ذَهَبَ « مِرْآةُ الْبُومَةِ » بِالسَّلَّةِ إِلَى السُّوقِ !

كانَتْ فِكْرَةً طَرِيفَةً .

أُعْجِبَ النّاسُ بِما رَأَوْهُ . تَهافَتُوا عَلَى شِرائِهِ .

أَتَدْرِي بِكَمْ باعَ بُومَهُ وَغِرْبانَهُ ؟

بِخَمْسَةِ أَمْثالِ ما دَفَعَهُ لِلْخَبّازِ !

١٤ — نَدَمُ الْخَبّازِ

سَمِعَ الْخَبّازُ بِما ظَفِرَ بِهِ « مِرْآةُ الْبُومَةِ » مِنْ نَجاحٍ .

تَجَلَّتْ لِلْخَبّازِ بَراعَةُ عامِلِهِ ، وَبُعْدُ نَظَرِهِ . نَدِمَ عَلَى تَسَرُّعِهِ فِي لَوْمِهِ وَإِغْضابِهِ . أَدْرَكَ مِقْدارَ ما لَحِقَهُ مِنْ خَسارَةٍ .

اِنْطَلَقَ يَبْحَثُ عَنْهُ فِي كُلِّ مَكانٍ . ذَهَبَتْ جُهُودُهُ سُدًى .

لَمْ يَعْثُرْ لَهُ عَلَى أَثَرٍ .

١٥ – لِماذا هَرَبَ ؟

كانَ « مِرْآةُ الْبومَةِ » يَتوقَّعُ هٰذِهِ النَّتيجَةَ .

سُرْعانَ ما تَرَكَ الْمَدينَةَ .

أَرادَ مُعاقَبَةَ الْخَبّازِ . تَمَّ لَهُ ما أَرادَ .

عَرَفَ كَيْفَ يَجْزيهِ عَلَى غُرُورِهِ . لَقَّنَهُ دَرْسًا لا يُنْسَى .

١٦ – سِرْ فِي طَريقِكَ

بِهٰذِهِ الْقِصَّةِ وَأَمْثالِها ، يَسْتَدِلُّ نُقّادُ الأَلْمانِ عَلَى ما يَتَوخّاهُ « مِرْآةُ الْبومَةِ » ، حينَ يَتَظاهَرُ بِالْحِرْصِ عَلَى تَطْبيقِ ما يَسْمَعُهُ تَطْبيقًا حَرْفِيًّا .

* * *

فِي الْقِصَّةِ التّالِيَةِ صُورَةٌ طَريفَةٌ ، تُريكَ لَوْنًا جَديدًا مِنْ بَراعَتِهِ ، وَصِدْقِ نَظْرَتِهِ .

ذاتَ يَوْمٍ : كانَ « مِرْآةُ الْبومَةِ » عائِدًا مِنْ بَعْضِ أَسْفارِهِ .

لَقِيَهُ رَجُلٌ فِي طَريقِهِ .

اِبْتَدَرَهُ سائِلًا : « بَعْدَ كَمْ مِنَ الزَّمَنِ أَبْلُغُ الْمَدينَةَ ؟ »

أَجابَهُ « مِرْآةُ الْبومَةِ » : « سِرْ فِي طَريقِكَ . »

حَسِبَهُ الرَّجُلُ لَمْ يَسْمَعْ .

أَعادَ عَلَيْهِ السُّؤالَ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ .

لَمْ يَتَغَيَّرِ الْجَوابُ !

غَضِبَ الرَّجُلُ . حَسِبَهُ يَهْزَأُ بِهِ .

صَرَخَ مُتَأَلِّمًا : « تَبًّا لَكَ ، وَسُحْقًا ! ما بالُكَ لا تَرُدُّ عَلَى سُؤالِي ؟ ! »

لَمْ يَتَغَيَّرِ الْجَوابُ : « سِرْ فِي طَريقِكَ » .

١٧ – بَعْدَ ساعَتَيْنِ

كادَ الرَّجُلُ يَتَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ .

يَئِسَ مِنْ جَوابِ صاحِبِهِ . اِسْتَأْنَفَ سَيْرَهُ .

سَمِعَ « مِرْآةَ الْبومَةِ » يُناديهِ : يَسْأَلُهُ أَنْ يَتَمَهَّلَ .

اِشْتَدَّ عَجَبُ السّائِلِ مِمّا رَأَى . وَقَفَ فِي مَكانِهِ مُتَحَيِّرًا .

سَأَلَهُ غاضِبًا : « ماذا تُريدُ مِنّي ؟ »

فِي هُدُوءِ الْفَيْلَسُوفِ ، قالَ لَهُ « مِرْآةُ الْبومَةِ » :

« إِذا سِرْتَ عَلَى هٰذا النَّهْجِ – بِمِثْلِ هٰذِهِ الْخُطا – بَلَغْتَ الْمَدينَةَ بَعْدَ ساعَتَيْنِ . »

١٨ – مَنْطِقٌ صائِبٌ

غَضِبَ السّائِلُ حينَ سَمِعَ « مِرْآةَ الْبومَةِ » يَقُولُ : « سِرْ فِي طَريقِكَ » .

كانَ يَحْسَبُهُ مُتَرَفِّعًا عَنْ إِجابَتِهِ .

الآنَ يَرَى أَنَّ صاحِبَهُ كانَ عَلَى صَوابٍ .

لَمْ يَشَأْ « مِرْآةُ الْبُومَةِ » أَنْ يَخْدَعَ صاحِبَهُ .

كانَ يَتَوَخَّى الصَّحِيحَ فِي إِجابَتِهِ ، كانَ يُرِيدُ أَنْ يُلَقِّنَهُ دَرْسًا فِي الدِّقَّةِ .

كانَ يُرِيدُ أَنْ يَتَعَرَّفَ مَدَى سُرْعَتِهِ ، قَبْلَ أَنْ يُفْضِيَ إِلَيْهِ بِجَوابِ سُؤالِهِ .

هٰذِهِ لَمَحاتٌ خاطِفَةٌ ، تُرِيكَ طائِفَةً مِنْ جَوانِبِ الشَّخْصِيَّةِ الْجُحَوِيَّةِ الْفاتِنَةِ .

١٩ — فِي بِلادِ الشَّرْقِ

إِذا تَتَبَّعْنا هٰذِهِ الشَّخْصِيَّةَ فِي الْبِلادِ الشَّرْقِيَّةِ ، وَجَدْنا الْكَثِيرَ :

فِي « صَنْعاءِ الْيَمَنِ » وَحْدَها ، ثَلاثَةٌ مِنْ أَبْنائِها الْبَرَعَةِ الْمَوْهُوبِينَ .

كُلُّهُمْ مِنْ أَذْكِياءِ الْحَضَرِ الْمُتَمَيِّزِينَ بِسُرْعَةِ الْخاطِرِ وَسَدادِ الْإِجابَةِ .

أَوَّلُهُمْ «عَلِيُّ بْنُ زايِدٍ» صاحِبُ الْأَمْثالِ السّائِرَةِ ، وَهُوَ أَقْدَمُهُمْ مَوْلِدًا .

الثّانِي : « حُمَيْدُ بْنُ مَنْصُورٍ » .

الثّالِثُ : «أَحْمَدُ الْمَعْطَرِيُّ» ، وَهُوَ أَذْيَعُهُمْ صِيتًا ، وَأَبْرَعُهُمْ فُكاهَةً .

كانَ يَعِيشُ مُنْذُ قَرْنٍ مَضَى مِنَ الزَّمانِ .

٢٠ — مَأْدُبَةٌ مُفاجِئَةٌ

مِنْ طَرائِفِ ما يُرْوَى مِنْ أَخْبارِ « الْمَعْطَرِيِّ » : أَنَّ جَماعَةً مِنْ أَصْحابِهِ ائْتَمَرُوا بِهِ ذاتَ لَيْلَةٍ .

اقْتَحَمُوا عَلَيْهِ دارَهُ . فَرَضُوا عَلَيْهِ ضِيافَتَهُمْ .

كانَ أَوَّلَ ما فَعَلُوهُ : أَنْ خَلَعُوا أَحْذِيَتَهُمْ بِالْبابِ ، ثُمَّ دَخَلُوا بِغَيْرِ اسْتِئْذانٍ .

أَدْرَكَ غَرَضَهُمْ . تَظاهَرَ بِالْفَرَحِ لِقُدُومِهِمْ .

جَلَسُوا عَلَى فِراشٍ وَثِيرٍ .

حانَ وَقْتُ الطَّعامِ . طالَبُوهُ بِالْعَشاءِ . وَجَدُوا طَعامَهُمْ حاضِرًا .

أَكَلُوا هَنِيئًا . طابَ السَّمَرُ . طالَ السَّهَرُ . انْتَصَفَ اللَّيْلُ .

حانَ وَقْتُ الْعَوْدَةِ . تَأَهَّبُوا لِلْخُرُوجِ . أَيْنَ الْأَحْذِيَةُ ؟

عَبَثًا طالَ بَحْثُهُمْ . فَرْحَةٌ أَعْقَبَتْها تَرْحَةٌ .

ماذا صَنَعَ « الْمَعْطَرِيُّ » ، بِأَحْذِيَتِهِمْ ؟

مَكْرُهُ فَوْقَ مَكْرِهِمْ : ذَهَبَ إِلَى السُّوقِ فَباعَها . اشْتَرَى الطَّعامَ بِثَمَنِها .

تَحَيَّرَ الْمُؤْتَمِرُونَ . ماذا يَصْنَعُونَ ؟

أَقْبَلُوا عَلَيْهِ يَتَساءَلُونَ : أَحُفاةً يَخْرُجُونَ ؟!

سُؤالٌ أَعْقَبَهُ جَوابٌ : أَيْنَ أَحْذِيَتُنا ، يا « مَعْطَرِيُّ » ؟

— فِي بُطُونِكُمْ . أَيُّها الصِّحابُ !

هٰذِهِ بَعْضُ طَرائِفِ « الْمَعْطَرِيِّ » .

حَسْبُنا أَنْ نَجْتَزِئَ بِها ، فَما يَتَّسِعُ الْمَقامُ لِغَيْرِها .

* * *

إذا استأنفنا الرِّحْلَةَ :

رَأَيْنا « طَلْحَةَ » فِي « فارِسَ » .

« خُوشْ حالْ خانْ » فِي « الأَفْغانِ »

الشَّيْخَ « تشلِّي » فِي « الْهِنْدِ » .

السَّيِّدَ « أَفَنْتِي » فِي « الصِّينِ » .

٢١ — فِي بِلادِ الْغَرْبِ

إذا انتقلنا إلَى بِلادِ الْغَرْبِ ، وَجَدْنا جَمْهَرَةً أُخْرَى مِنَ الشُّخُوصِ الْجُحَوِيَّةِ الفاتِنَةِ الَّتِي تُشِيعُ فِي أَرْجائِها رُوحَ الدُّعابَةِ الْبَرِيئَةِ الْمَرِحَةِ :

« دْيُوجِينَ » الْمَعْرُوفَ بِـ « جُحا الرُّومِيِّ » فِي « الْيُونانِ » .

« أَرْتِينَ » فِي بِلادِ « الأَرْمَنِ » . « كُوزْمابرُوتكُوف » فِي « رُوسيا » . « هِرْ ماجُوشَ » فِي « النِّمْسا » .

إذا اتَّجَهْنا إلَى « فَرَنْسا » ، رَأَيْنا جَمْهَرَةً مِنَ الشُّخُوصِ الْجُحَوِيَّةِ ، مِنْ أَمْثالِ : « دِي كْراك » . « دُوقْ سانْ سِيمُون » . « دِي لا بالِيس » . « مِيشِل مُوران » . « بُوناس » . « كالِينُو » . « مَرْيُوس » ، وَأَمْثالِهِمْ .

إذا انْتَقَلْنا إلَى « بريطانْيا » رَأَيْنا : « سِمْبِل سَيْمُن » وَ « سانْ جُورج » فِي « لَنْدَنَ » . « أَنْدرُوز » فِي « اسْكُتْلَنْدَةَ » .

« داوُد » فِي « بِلادِ الْغالِ » .

إِذا اتَّجَهْنا إِلَى « أَيرلَنْدَةَ » وَجَدْنا « بَتْرِيك » .

إِذا ذَهَبْنا إِلَى « إِسْبانْيا » ، وَجَدْنا شَخْصِيَّةً قَرِيبَةً مِنَ الشَّخْصِيّاتِ الْجُحَوِيَّةِ الْفاتِنَةِ ، إِنْ لَمْ تَكُنْها ، مُمَثَّلَةً فِي : « دُونْ كِيشُوتَ » .

٢٢ — أَنْماطٌ فِكْرِيَّةٌ

هٰكَذا تَرَى أَنَّهُ لا تَكادُ أُمَّةٌ تَخْلُو مِنْ مِثالٍ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ مِنَ الشُّخُوصِ الْجُحَوِيَّةِ الْمَرِحَةِ الْفاتِنَةِ .

هٰكَذا طَوَّعَ الْمُبْدِعُونَ أَلْوانًا لا تُحْصَى مِنْ طَرائِفِ الْفُنُونِ الْجُحَوِيَّةِ ، وَفَصَّلُوا مِنْها أَنْماطًا فِكْرِيَّةً أَلْبَسُوها بَدائِعَ أَفْكارِهِمْ ، وَعَرائِسَ أَحْلامِهِمْ .

عَلَى مَدَى الْأَزْمانِ ، لَمْ تَلْبَثِ الْفِكْرَةُ الْجُحَوِيَّةُ - بِاخْتِلافِ الْأُمَمِ الَّتِي تَناقَلَتْها - أَنْ تَشَكَّلَتْ بِأَلْوانِ الْعُصُورِ وَالْأُمَمِ الَّتِي قَبَسَتْها ، كَما يَتَشَكَّلُ الْماءُ بِلَوْنِ الْإِناءِ .

٢٣ — طائِفَةٌ مِنَ الْآراءِ

فِي هٰذِهِ الْإِلْمامَةِ الْخاطِفَةِ يُحْسِبُنا أَنْ نَقْتَصِرَ - مِنَ الشُّخُوصِ الْجُحَوِيَّةِ الْفاتِنَةِ - عَلَى ما أَسْلَفْنا مِنْ حَدِيثٍ عَنْ ثَلاثَةٍ مِنْ أَعْلامِ الْفُكاهَةِ الْمَرِحَةِ الْباسِمَةِ ، هُمْ :

« أَبُو الْغُصْنِ دُجَيْنُ بْنُ ثابِتِ بْنُ جَحْوانَ » الْمَعْرُوفُ
بِـ « جُحا الْعَرَبِيِّ » .

وَ « نَصْرُ الدِّينِ خُوجَةَ » الْمَعْرُوفُ بِـ « جُحا التُّرْكِيِّ » .

وَ « مِرْآةُ الْبُومَةِ » : « تِلْ أُويلِنْ شْبِيجِلْ » الْمَعْرُوفُ بِـ « جُحا الْأَلْمانِيِّ » .

كَما يُحْسِبُنا أَنْ نَقْتَصِرَ عَلَى « خُرافَةَ » : أَوَّلِ مَنْ عَرَفْنا مِنْ مُبْدِعِي الْأَساطِيرِ الْعَرَبِيَّةِ الْفاتِنَةِ

فِيما أَسْلَفْنا مِنْ حَدِيثٍ - فِي هٰذا الْفَصْلِ - رَأَيْنا أَنَّ « جُحا » التُّرْكِيَّ يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ نُسْخَةً مُكَرَّرَةً مِنْ « جُحا » الْعَرَبِيِّ :

مَذْهَبُهُما واحِدٌ . حَظُّهُما جِدُّ مُخْتَلِفٍ !

« جُحا » الْعَرَبِيُّ لَقِيَ مِنْ ضُرُوبِ الْإِهْمالِ وَالْجُحُودِ - فِي حَياتِهِ ، وَبَعْدَ مَوْتِهِ - ما لا مَزِيدَ عَلَيْهِ .

ضاعَتْ آثارُهُ وَقَبْرُهُ جَمِيعًا . إِلَى الْيَوْمِ لَمْ يَعْثُرْ عَلَيْهِما أَحَدٌ .

« جُحا » التُّرْكِيُّ لَقِيَ فُنُونًا مِنَ الْعِنايَةِ فِي حَياتِهِ . أَصْبَحَ قَبْرُهُ - بَعْدَ مَوْتِهِ - مَزارًا يُحَجُّ إِلَيْهِ فِي مَدافِنِ « آقْ شِهِرْ » .

اِنْقَسَمَ النّاسُ - فِي الْحُكْمِ عَلَى الْآثارِ الْجُحَوِيَّةِ - ثَلاثَ طَوائِفَ :

طائِفَةٌ كادَتْ تُلْحِقُ مُبْدِعَها بِالْأَوْلِياءِ وَالْأَطْهارِ ، وَالْقِدِّيسِينَ الْأَبْرارِ .

طائِفَةٌ أَسْرَفَتْ فِي تَحْقِيرِهِ ، وَالتَّهْوِينِ مِنْ شَأْنِهِ . زَعَمَتْ أَنَّهُ كانَ آيَةً مِنْ آياتِ الْبَلَهِ وَالْغَفْلَةِ ، وَمَثَلًا مِنْ أَمْثِلَةِ الْغَباوَةِ وَالْحَماقَةِ .

ثالِثَةٌ رَأَتْ فِيهِ مِثالًا لِلدَّجَلِ وَالتَّدْلِيسِ ، وَنَمُوذَجًا لِلْخِداعِ وَالتَّلْبِيسِ .

٢٤ — تَشابُهُ الرَّجُلَيْنِ

عَلَى أَيِّ حالٍ ، هُناكَ حَقِيقَةٌ مُشْتَرَكَةٌ :

كانَ كِلا الرَّجُلَيْنِ ذَكِيًّا بارِعًا ، راجِحَ الْعَقْلِ مُحَدَّثًا[١] ، يَتَغابَى فِي غَيْرِ غَباءٍ ، وَيَتَبالَهُ فِي غَيْرِ بَلَهٍ ، وَيَمْكُرُ فِي غَيْرِ خُبْثٍ ؛ لِيَخْلُصَ مِنْ أَذَى الْأَشْرارِ الْكائِدِينَ ، وَبَطْشِ الطُّغاةِ الْمُعْتَدِينَ .

تَشابَهَ الرَّجُلانِ . اِمْتَزَجَتْ آثارُ كُلٍّ مِنْهُما بِآثارِ صاحِبِهِ ، كَما امْتَزَجَتْ بِالْكَثِيرِ مِنْ آثارِ غَيْرِهِما مِنَ الشَّخْصِيّاتِ الْجُحَوِيَّةِ وَما إِلَيْها ، وَما أُضِيفَ عَلَيْها ، مِمّا تَخَيَّلَهُ الْمُتَخَيِّلُونَ ، وَأَضافَهُ الْمُتَزَيِّدُونَ .

---

(١) ملهما : صادق الفراسة .

٢٥ — شِعارٌ مُشْتَرَكٌ

أُسْلُوبُ الرَّجُلَيْنِ فِي مُواجَهَةِ الْحَياةِ واحِدٌ . شِعارُهُما واحِدٌ : تَفاؤُلٌ بِالْحَياةِ ، وابْتِسامٌ لِكُلِّ ما لَقِياهُ مِنْ خَيْرٍ وَأَذاةٍ .

شِعارُ « جُحا التُّرْكِيِّ » يَتَمَثَّلُ فِي قَوْلِهِ :

« مَذْهَبُنا أَنْ نَتَغَنَّى بِالْحَياةْ
بِما نُلاقِي مِنْ سُرُورٍ وَأَذاةْ
الْكَوْنُ مَحْبُوبٌ بَهِيجٌ ما حَواهْ .
وَما نَرَى إِلَّا جَمِيلًا ما نَراهْ » .

شِعارُ « جُحا الْعَرَبِيِّ » يَتَمَثَّلُ فِي قَوْلِهِ :

« لَمْ أَضِقْ بِالْحَياةِ ذَرْعًا ، وَعِنْدِي بَسَماتٌ لِلْخَطْبِ وَهْوَ جَلِيلُ
لا أَرَى فِي الْوُجُودِ إِلَّا جَمالًا كُلُّ ما فِي الْوُجُودِ حُسْنٌ أَصِيلُ [1] »

٢٦ — مِنْ آثارِ « خُرافَةَ »

عَلَى تَوالِي الْأَيَّامِ ، أَصْبَحَتْ كَلِمَةُ « جُحا » كافِيَةً لِلتَّعْبِيرِ عَنْ كُلِّ « جُحا » فِي كُلِّ عَصْرٍ ، وَفِي كُلِّ أُمَّةٍ ، كَما أَصْبَحَتْ كَلِمَةُ « خُرافَةَ » - مِنْ قَبْلِهِ - كافِيَةً لِلتَّعْبِيرِ عَنْ كُلِّ حَدِيثٍ خَيالِيٍّ لا حَقِيقَةَ لَهُ ، سَواءٌ أَكانَ قَدِيمًا أَمْ حَدِيثًا ، رائِعًا أَمْ سَخِيفًا ، شَرْقِيًّا أَمْ غَرْبِيًّا .

(١) ستمر بك قصيدته فى مكانها من هذه المجموعة .

أَصْبَحْنا نَرَى طائِفَةً مِنْ أَحادِيثِ « خُرافَةَ » الْمُبْدَعَةِ محاكاة مُقَلَّدَةً فِي بَعْضِ قِصَصِ « أَلْفِ لَيْلَةٍ » ، وَ « سَيْفِ بْنِ ذِي يَزَنَ » ، وَما إِلَيْهِما ...

فِيما بَقِيَ لَدَيْنا مِنْ آثارِ « خُرافَةَ » - عَلَى مَنْزُورِهِ وَنَدْرَتِهِ - مَجالٌ لِلتَّأَمُّلِ والْبَحْثِ .

فِي مُسْتَهَلِّ هٰذا الْفَصْلِ إِشارَةٌ عابِرَةٌ لِما تَخَيَّلَهُ « خُرافَةُ » فِي بَعْضِ أَساطِيرِهِ [1] .

فِي هٰذِهِ الْأُسْطُورَةِ الْبارِعَةِ الْخَيالِ ما يُذَكِّرُنا بِأُسْطُورَةِ « أَمِيرِ الْعَفارِيتِ » [2] الَّتِي قَرَأْتَها - فِيما قَرَأْتَ - مِنْ قِصَصِ « شَهْرَزادَ » : مُبْدِعَةِ « أَلْفِ لَيْلَةٍ » .

٢٧ — بَيْنَ أُسْطُورَتَيْنِ

فِي كِلْتا الْأُسْطُورَتَيْنِ رَجُلٌ يَقَعُ فِي أَسْرِ الْجِنِّ .

فِي أُسْطُورَةِ « خُرافَةَ » رَجُلٌ يَقَعُ فِي أَسْرِ ثَلاثَةٍ مِنَ الْجِنِّ .

فِي أُسْطُورَةِ « أَمِيرِ الْعَفارِيتِ » رَجُلٌ يَقَعُ فِي أَسْرِ جِنِّيٍّ واحِدٍ .

فِي كِلْتا الْأُسْطُورَتَيْنِ ثَلاثَةٌ مِنَ الْمُسافِرِينَ ، يَتَوَسَّلُونَ إِلَى الْجِنِّ لِتَخْلِيصِ الْأَسِيرِ ، بِما يَقُصُّونَهُ مِنْ عَجائِبِ ما وَقَعَ لَهُمْ مِنْ مُدْهِشاتِ الْأَخْبارِ ، وَغَرائِبِ الْأَسْمارِ .

(١) انظر ص ٢ من هذه المجموعة .

(٢) ارجع إليها فى مجموعة الدار .

فِي كِلْتا الْقِصَّتَيْنِ تَنْتَهِي الْخاتِمَةُ بِخَلاصِ الْأَسِيرَيْنِ :

فِي أُسْطُورَةِ « خُرافَةَ » عِجْلٌ مَسْحُورٌ وَفَرَسانِ مَسْحُورانِ وَبِئْرٌ مَسْحُورَةٌ .

فِي قِصَّةِ « أَمِيرِ الْعَفارِيتِ » غَزالَةٌ مَسْحُورَةٌ ، وَكَلْبانِ أَسْوَدانِ مَسْحُورانِ ، وَبَغْلٌ مَسْحُورٌ ، وَواحَةٌ مَسْحُورَةٌ .

لِكُلٍّ مِنْ هٰؤُلاءِ قِصَّةٌ تَفْتِنُ سامِعِيها مِنَ الْجِنِّ ، وَتَسْحَرُ أَلْبابَهُمْ ؛ فَلا يَتَرَدَّدُونَ فِي تَخْلِيصِ أَسِيرِهِمْ .

٢٨ — الْعِجْلُ الْمَسْحُورُ

فِي أُسْطُورَةِ « الْعِجْلِ الْمَسْحُورِ » رَمْزٌ بَدِيعٌ لِلدُّءُوبِ وَالْمُثابَرَةِ وَالْأَمَلِ الْمُتَجَدِّدِ ، بِرَغْمِ كَلالِ الطَّبْعِ وَتَوالِي الْإِخْفاقِ :

شَيْخٌ فِي يَدِهِ عَصًا ، يَجْرِي فِي إِثْرِ ثَوْرٍ .

الشَّيْخُ يَتَوَقَّفُ عَنِ الْجَرْيِ ، حِينَ يَرَى « خُرافَةَ » وَمَنْ مَعَهُ . الشَّيْخُ يُحَيِّي الْحاضِرِينَ .

الْحاضِرُونَ يَرُدُّونَ عَلَيْهِ التَّحِيَّةَ .

الشَّيْخُ يَتَعَرَّفُ قِصَّةَ « خُرافَةَ » مَعَ آسِرِيهِ مِنَ الْجِنِّ .

الشَّيْخُ يَقُصُّ عَلَيْهِمْ عَجِيبَتَهُ ؛ لَعَلَّهُمْ يَتَجاوَزُونَ بِالْعَفْوِ عَنْ أَسِيرِهِمْ « خُرافَةَ » .

الشَّيْخُ يَقُولُ : « كانَ لِي عَمٌّ . كانَ مُوسِرًا . كانَتْ لَهُ ابْنَةٌ جَمِيلَةٌ .

كانَ لِعَمِّي عِجْلٌ يُرَبِّيهِ . انْفَلَتَ الْعِجْلُ .

قالَ عَمِّي : « أَيُّكُمْ يَرُدُّ الْعِجْلَ ، فابْنَتِي لَهُ ! »

رَأَيْتُ أَلَّا تُفْلِتَ الْفُرْصَةُ مِنِّي . أَسْرَعْتُ إِلَى عَصايَ . جَرَيْتُ فِي أَثَرِ الْعِجْلِ . كُنْتُ - حِينَئِذٍ - غُلامًا ... الْغُلامُ أَصْبَحَ شَيْخًا . الْعِجْلُ أَصْبَحَ ثَوْرًا .. مَرَّتِ الْأَيَّامُ وَالْأَسابِيعُ .. مَرَّتِ الشُّهُورُ وَالسُّنُونَ .. لا أَنا أَلْحَقُ الْعِجْلَ ، وَلا هُوَ يَكِلُّ ! ظَلَّتِ الْمَسافَةُ بَيْنَنا - طَوالَ الْأَيّامِ - ثابِتَةً لا تَتَغَيَّرُ ! »

٢٩ — دابَّةُ الْبَحْرِ

فِي قِصَّةِ « سَيْفِ بْنِ ذِي يَزَنَ » ما يُذَكِّرُنا بِهٰذِهِ الْأُسْطُورَةِ :

فِي أُسْطُورَةِ « خُرافَةَ » - كَما رَأَيْتَ - رَجُلٌ يُحاوِلُ اللَّحاقَ بِدابَّةٍ مِنْ دَوابِّ الْبَرِّ .

فِي أُسْطُورَةِ « سَيْفٍ » دابَّةٌ مِنْ دَوابِّ الْبَحْرِ ، تُحاوِلُ اللَّحاقَ بِكَوْكَبِ الشَّمْسِ . دابَّةُ بَحْرٍ مَكانَ دابَّةِ الْبَرِّ .

فِي أُسْطُورَةِ « خُرافَةَ » رَجُلٌ يَقْضِي حَياتَهُ كُلَّها : طُفُولَتَهُ وَشَبابَهُ وَكُهُولَتَهُ فِي مُطارَدَةِ الْعِجْلِ .

فِي أُسْطُورَةِ « سَيْفٍ » حُوتٌ هائِلُ الْحَجْمِ يَقْضِي حَياتَهُ كُلَّها : طُفُولَتَهُ وَشَبابَهُ وَكُهُولَتَهُ فِي مُطارَدَةِ الشَّمْسِ .

فِي كِلْتا الْأُسْطُورَتَيْنِ يَنْتَهِي السَّعْيُ بِالْإِخْفاقِ .

فِي أُسْطُورَةِ « خُرافَةَ » أَمَلٌ طامِحٌ يَتَجَدَّدُ كُلَّ يَوْمٍ ، دُونَ أَنْ يَبْلُغَ هَدَفَهُ .

فِي أُسْطُورَةِ « سَيْفٍ » أَمَلٌ حاقِدٌ يَتَجَدَّدُ كُلَّ يَوْمٍ ، دُونَ أَنْ يَبْلُغَ هَدَفَهُ . فِي قِصَّةِ « سَيْفٍ » يَقُولُ راوِي هٰذِهِ الْأُسْطُورَةِ لِبَطَلِ الْقِصَّةِ :

« اِعْلَمْ يا وَلَدِي : أَنَّ هٰذِهِ الدَّابَّةَ خَلَقَها اللهُ وَشَغَلَها بِالشَّمْسِ . إِذا نَظَرَتِ الشَّمْسَ طالِعَةً مِنَ الْمَشْرِقِ ، دارَتْ بِوَجْهِها تَرُومُ اخْتِطافَها فَلا تَلْحَقُها . إِذا نَزَلَتِ الشَّمْسُ لِلْمَغْرِبِ ، انْقَلَبَتِ الدَّابَّةُ إِلَى جِهَتِها ، تَرُومُ أَنْ تَلْتَقِمَها بِفَمِها ، فَلا تَلْحَقُها .

تَخْبِطُ رَأْسَها بِالْأَرْضِ حَتَّى تَدُوخَ . حِينَئِذٍ يُدْرِكُها النَّوْمُ فَتَنامُ . فِي . . . الصَّباحِ : تُشْرِقُ الشَّمْسُ . تُفِيقُ الدَّابَّةُ مِنْ نَوْمِها . تَجِدُ الشَّمْسَ طالِعَةً مِنَ الْمَشْرِقِ . تَسْتَأْنِفُ الدَّابَّةُ سَعْيَها . يَدْفَعُها غَيْظُها لِلَّحاقِ بِها . تَنْحَرِفُ إِلَيْها تُرِيدُ اخْتِطافَها . تَرَى الشَّمْسَ قَدِ ارْتَفَعَتْ ، فَتَدُورُ مَعَها ـ وَهِيَ ناظِرَةٌ إِلَيْها ـ حَتَّى تَغْرُبَ ، وَهٰكَذا . . .

٣٠ ــ بِئْرُ « خُرافَةَ »

فِي أُسْطُورَةِ « خُرافَةَ » يُحَدِّثُنا أَحَدُ شُخُوصِهِ الْمُبْتَدَعَةِ عَنْ بِئْرٍ عَجِيبَةٍ . يَشْرَبُ مِنْها رَجُلٌ فَإِذا هُوَ أُنْثَى ، ثُمَّ يَشْرَبُ مِنْها مَرَّةً أُخْرَى فَإِذا هُوَ رَجُلٌ كَما كانَ .

ما أَجْدَرَ هٰذِهِ الْبِئْرَ الْمَسْحُورَةَ أَنْ تُلْحَقَ بِقِصَّةِ :

« أَلِيس فِي بِلادِ الْغَرائِبِ » !

قِصَّةُ الْبِئْرِ الْمَسْحُورَةِ ، الَّتِي أَبْدَعَها خَيالُ هٰذا الْقاصِّ الْعَرَبِيِّ الْأَصِيلِ لَها نَظائِرُ ، فِيما تُطالِعُكَ بِهِ الْأَساطِيرُ ـ فِي مُخْتَلِفِ الْبُلْدانِ ـ مِنْ بَدِيعِ الصُّوَرِ ، وَغَرِيبِ الْأَخْيِلَةِ ؛ عَنِ الْماءِ الَّذِي أَوْدَعَ فِيهِ الْخالِقُ سِرَّ الْحَياةِ ، وَجَعَلَ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .

ما أَكْثَرَ ما تُرِيكَ الْأَساطِيرُ : ساحِرًا أَوْ ساحِرَةً ، يَعْمِدُ إِلَى طاسَةٍ أَوْ طَبَقٍ يَمْلَؤُهُ ماءً مَسْحُورًا ، ثُمَّ يُلْقِي بِهِ عَلَى وَجْهِ مَنْ شاءَ ؛ لِيُخْرِجَهُ مِنْ صُورَتِهِ الْآدَمِيَّةِ إِلَى ما شاءَ مِنَ الصُّوَرِ الْكَرِيهَةِ .

فَإِذا شاءَ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْهِ آدَمِيَّتَهُ الْأُولَى ، لَجَأَ إِلَى الطَّاسَةِ ، فَأَلْقَى عَلَيْهِ بِمائِها الْمَسْحُورِ لِيُعِيدَ سِيرَتَهُ الْأُولَى .

ما أَكْثَرَ ما يُطالِعُنا هٰذا الْمَشْهَدُ أَوْ قَرِيبٌ مِنْهُ : نَرَى الْمَسْحُورَ بَعْدَ إِلْقاءِ الْماءِ عَلَيْهِ يَنْتَقِلُ مِنْ صُورَتِهِ الْآدَمِيَّةِ إِلَى الْقِرْدِيَّةِ ، أَوِ الْكَلْبِيَّةِ أَوِ الْغُرابِيَّةِ ، أَوِ الْحِمارِيَّةِ . . الخ .

لَعَلَّكَ تَذْكُرُ ما مَرَّ بِكَ مِنْ أَمْثالِ هٰذِهِ الْمَشاهِدِ فِي أَساطِيرِ « شَهْرَزادَ » ، وَ « عَجائِبِ الْقِصَصِ » ، وَما إِلَيْها .

٣١ ــ الرَّمْزُ الْجُحَوِيُّ

عَلَى تَوالِي الْعُصُورِ ، أَصْبَحَ الرَّمْزُ الْجُحَوِيُّ ـ كَما أَصْبَحَ الرَّمْزُ الْخُرافِيُّ ، مِنْ قَبْلِهِ ـ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِالرَّمْزِ الْجَبْرِيِّ :

« س » تُساوِى - تارَةً - مِلْيُونًا مِنَ الْجُنَيْهاتِ ، وَتارَةً عَشْرَ تُفَّاحاتٍ ، وَثالِثَةً صِفْرًا ، وَرابِعَةً سِتَّ دَجاجاتٍ !

فِى كِتابِ « الْأَبْطالِ » الَّذِى أَبْدَعَهُ « كارلِيل » تَراهُ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْبَطَلِ فِى صُورَةِ مُصْلِحٍ ، وَالْبَطَلِ فِى صُورَةِ زَعِيمٍ ، وَالْبَطَلِ فِى صُورَةِ قائِدٍ ، وَالْبَطَلِ فِى صُورَةِ شاعِرٍ ، وَهٰكَذا . . .

* * *

يَرَى الْمُتَتَبِّعُ لِتارِيخِ « جُحا » - وَما نُسِبَ إِلَيْهِ مِنْ أَخْبارٍ - كَيْفَ سَلَكَ رُواةُ طَرائِفِهِ مِثْلَ هٰذا الْمَنْهَجِ ، أَوْ قَرِيبًا .

مَثَّلُوا لَنا « جُحا » فِى صُورَةِ فَيْلَسُوفٍ . « جُحا » فِى صُورَةِ أَبْلَهَ . « جُحا » فِى صُورَةِ قاضٍ . « جُحا » فِى صُورَةِ مُتَقاضٍ . « جُحا » فِى صُورَةِ سارِقٍ . « جُحا » فِى صُورَةِ مَسْرُوقٍ . « جُحا » فِى صُورَةِ فَقِيرٍ . « جُحا » فِى صُورَةِ غَنِىٍّ ، وَهٰكَذا . . . !

أَصْبَحَتْ كَلِمَةُ « جُحا » كافِيَةً لِلتَّعْبِيرِ عَنْ هٰذا كُلِّهِ .

سَتَرَى ما يُبْهِجُ نَفْسَكَ فِيما تَخَيَّرْنا لَكَ مِنَ الْقَصَصِ الْجُحَوِىِّ الرَّائِعِ الَّذِى امْتَزَجَتْ فِيهِ الدُّعابَةُ بِالْجِدِّ ، وَالْتَقَتْ فِيهِ الْحَقِيقَةُ بِالْخَيالِ ؟

كامل كيلانى

(المحرم ١٣٦٢ هـ. يناير سنة ١٩٤٤ م)

بِرْمِيلُ الْعَسَلِ

١ - تَمْهِيدُ الْقِصَّةِ

وَلَدِى رَشادُ :

طالَما سَأَلْتَنِى عَنِ الْمَصْدَرِ الَّذِى أَسْتَقِى مِنْهُ ما أَنْقُلُهُ إِلَيْكَ ، وَإِلَى إِخْوانِكَ الْأَعِزَّاءِ ، مِنْ قَصَصٍ جُحَوِىٍّ شائِقٍ .

كانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّى وَحَظِّكَ أَنْ عَثَرْتُ عَلَى مَخْطُوطٍ جُحَوِىٍّ قَدِيمٍ ، كَتَبَهُ ابْنُ أَخِيهِ : « أَبُو السَّبَهْلَلِ : طارِقُ بْنُ بَهْلَلَ بْنِ ثابِتٍ » .

كانَ ابْنُ أَخِيهِ مَعْنِيًّا بِتَسْجِيلِ أَحادِيثِ عَمِّهِ « جُحا » وَمُلَحِهِ وَطَرائِفِهِ ، كَما عُنِيتَ - أَنْتَ وَإِخْوَتُكَ - بِتَسْجِيلِ الْكَثِيرِ مِنْ أَحادِيثِ أَبِيكُمْ .

فِى مُقَدِّمَةِ الْمَخْطُوطِ الْجُحَوِىِّ النَّفِيسِ الَّذِى أَهْداهُ إِلَى وَلَدَيْهِ الْعَزِيزَيْنِ - « جَحْوانَ » وَ « جُحَيَّةَ » - قالَ « أَبُو الْغُصْنِ » :

٢ - الْوالِى الْجَدِيدُ

« وَلَدَىَّ الْعَزِيزَيْنِ :

كانَ والِينا الْجَدِيدُ يُحِبُّ الْعَسَلَ حُبًّا شَدِيدًا .

كانَ - فِيما سَمِعْتُ ، وَسَمِعَ غَيْرِى مِنَ النَّاسِ - مَشْغُوفًا بِالْعَسَلِ : كانَ يُفَضِّلُهُ عَلَى كُلِّ ما عَداهُ مِنْ أَلْوانِ[1] الْحَلْوَى ، وَلَذائِذِ الْفاكِهَةِ .

عَرَفْنا ذٰلِكَ مِمَّا تَرامَى إِلَيْنا مِنْ أَنْبائِهِ ، وَاجْتَمَعَ لَدَيْنا مِنْ أَخْبارِهِ .

(١) أنواع .

٣ — هَدِيَّةُ الْمُحْتَفِلِينَ

عَلِمْنَا بِقُرْبِ حُضُورِهِ . أَعْدَدْنَا الْعُدَّةَ(١) لِلْحَفَاوَةِ بِهِ(٢) .

اِجْتَمَعَ رَأْيُنَا عَلَى أَنْ نُهْدِيَ إِلَيْهِ بِرْمِيلًا كَبِيرًا ، نَمْلَؤُهُ بِأَحَبِّ طَعَامٍ إِلَيْهِ ، وَهُوَ الْعَسَلُ .

تَعَاهَدْنَا(٣) عَلَى أَنْ يُسْهِمَ(٤) كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا فِي هٰذِهِ الْهَدِيَّةِ بِأَيْسَرِ(٥) نَصِيبٍ .

اِتَّفَقْنَا عَلَى أَنْ يَكْتَتِبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا فِي إِعْدَادِ الْهَدِيَّةِ بِالْقَلِيلِ التَّافِهِ ، الَّذِي لَا يَكَادُ يُكَلِّفُهُ شَيْئًا .

اِجْتَمَعَ الرَّأْيُ عَلَى أَنْ يُلْقِيَ كُلُّ فَرْدٍ مِنَّا - فِي الْبِرْمِيلِ الْكَبِيرِ - بِمِقْدَارِ فِنْجَانَةٍ صَغِيرَةٍ .

٤ — خَاطِرٌ غَرِيبٌ

قَبْلَ أَنْ أُغَادِرَ بَيْتِي خَطَرَ بِبَالِي خَاطِرٌ غَرِيبٌ . سَوَّلَتْ(٦) لِي نَفْسِي أَنْ أَهْرُبَ مِنْ أَدَاءِ هٰذَا الْوَاجِبِ الْيَسِيرِ(٧) ، الَّذِي لَا يُكَلِّفُنِي شَيْئًا .

لَسْتُ أَدْرِي : كَيْفَ طَاوَعْتُ نَفْسِي ؟ !

كَيْفَ نَسِيتُ - فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ - أَنَّ النَّفْسَ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ؟ !

كَانَ خَطَأً جَسِيمًا . كَانَ ذَنْبًا عَظِيمًا .

أَذْكُرُهُ وَلَا أَنْسَاهُ ، مَدَى الْحَيَاةِ .

---

(١) تهيأنا واستعددنا . (٢) للمبالغة فى إكرامه . (٣) عقدنا العزم .
(٤) يشترك . (٥) بأقل . (٦) زينت . (٧) السهل .

٥ — النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ



حَالَتْ مِنِّي الْتِفَاتَةٌ . رَأَيْتُ الزِّيرَ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنِّي .

كَانَ يَفِيضُ بِالْمَاءِ الْعَذْبِ .

قُلْتُ فِي نَفْسِي :

« فِنْجانَةُ عَسَلٍ أُقَدِّمُها لِلْوالِي ! ما أَحْقَرَ الْهَدِيَّةَ !

ما قِيمَةُ فِنْجانَةٍ مِنَ الْعَسَلِ : فِنْجانَةٍ واحِدَةٍ ؟ !

لِماذا أُعَنِّي نَفْسِي بِالذَّهابِ إِلَى السُّوقِ ؟

مِئاتٌ غَيْرِي مِنَ النَّاسِ سَيَقُومُونَ بِأَداءِ هٰذا الْواجِبِ .

لَنْ تَزِيدَ فِنْجانَةُ الْعَسَلِ - فِي قِيمَةِ الْهَدِيَّةِ - وَلَنْ تَنْقُصَ

لَنْ تُقَدِّمَ . وَلَنْ تُؤَخِّرَ ! »

٦ — فِنْجانَةُ الْماءِ

حاوَلْتُ أَنْ أَطْرُدَ هٰذا الْخاطِرَ الْخَبِيثَ .

هَمَمْتُ بِالذَّهابِ إِلَى السُّوقِ .

عاوَدَتْنِي الْفِكْرَةُ الْخاطِئَةُ .

رُحْتُ أُسائِلُ نَفْسِي مَرَّةً أُخْرَى : « ما قِيمَةُ فِنْجانَةٍ واحِدَةٍ !

سِيَّانِ عِنْدِي أَنْ تُمْلَأَ الْفِنْجانَةُ ماءً أَوْ عَسَلًا .

لَنْ يَشْعُرَ كائِنٌ كانَ أَنَّنِي أَدَّيْتُ واجِبِي أَوْ قَصَّرْتُ فِيهِ .

هَيْهاتَ أَنْ يَفْطُنَ أَحَدٌ لِما فَعَلْتُ ! »

* * *

هٰكَذا خَدَعَتْنِي النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ .

أَسْرَعْتُ إِلَى الزِّيرِ . اِغْتَرَفْتُ مِنْ مائِهِ قَلِيلًا . اِمْتَلَأَتِ الْفِنْجانَةُ .

أَسْرَعْتُ بِالذَّهابِ إِلَى قَصْرِ الْوالِي .



فِي غَفْلَةٍ مِنَ النَّاسِ ، صَبَبْتُ ما فِي فِنْجانَتِي الصَّغِيرَةِ

- مِنْ قَطَراتِ الْماءِ - فِي الْبِرْمِيلِ الْكَبِيرِ .

رَجَعْتُ مِنْ حَيْثُ أَتَيْتُ .

* * *

كُنتُ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ صَوابِ ما فَعَلْتُ .

لَمْ يُساوِرْنِي هَمٌّ وَلا نَدَمٌ .

لَمْ يَخْطُرْ بِبالِي أَنَّنِي فَعَلْتُ شَيْئًا يَسْتَحِقُّ الْمُؤاخَذَةَ واللَّوْمَ .

لَمْ يَخْطُرْ بِبالِي أَنَّ سِرِّي سَيَفْتَضِحُ .

٧ — يَوْمُ الْمِهْرَجانِ

سَمِعَ الْوالِي بِاقْتِراحِنا .

أُعْجِبَ بِفِكْرَتِنا .

أَعْلَنَ تَرْحِيبَهُ بِهَدِيَّتِنا .

حَلَّ يَوْمُ الْمِهْرَجانِ .

اِنْتَظَرْنا مَقْدَمَ الْوالِي إِلَيْنا ، وَثَناءَهُ عَلَيْنا .

ما كانَ أَعْجَبَها مُفاجَأَةً !

وَقَعَ ما لَيْسَ فِي الْحِسْبانِ .

كانَ ضَلالًا ما أَمَّلْنا .

حَدَثَ عَكْسُ ما تَوَقَّعْنا :

فُتِحَ الْبِرْمِيلُ .

قَدَّمَ أَحَدُ أَتْباعِ الْوالِي لَهُ وِعاءً مَمْلُوءًا .

اِشْتَدَّ بِالْوالِي الْهِياجُ وَتَمَلَّكَهُ الْغَضَبُ . »

* * *



يا لِدَهْشَةِ الْوالِي وَسُخْطِهِ !

لَيْسَ فِي الْوِعاءِ قَطْرَةٌ واحِدَةٌ مِنَ الْعَسَلِ .

كُلُّ ما فِيهِ ماءٌ : ماءٌ خالِصٌ ، لا تُخالِطُهُ قَطْرَةٌ واحِدَةٌ مِنَ الْعَسَلِ .

٨ — بِرْمِيلُ الْماءِ

وَلَدَيَّ الْعَزِيزَيْنِ : لَعَلَّكُما أَدْرَكْتُما السِّرَّ فِيما حَدَثَ !
لَعَلَّكُما عَرَفْتُما أَنَّ الْفِكْرَةَ الْخاطِئَةَ ، الَّتِي خَطَرَتْ بِبالِي ، لَمْ تَكُنْ وَقْفاً عَلَيَّ وَحْدِي .

الْفِكْرَةُ الْحَمْقاءُ ، الَّتِي دَفَعَتْنِي إِلَيْها الْأَثَرَةُ والْأَنانِيَّةُ[١] ، مَرَّتْ عَلَى بالِ كُلِّ واحِدٍ مِنْ أَصْحابِي الْمِئِينَ[٢] ، الَّذِينَ اشْتَرَكُوا فِي تَقْدِيمِ الْهَدِيَّةِ إِلَى الْوالِي. لَمْ يَقُمْ بِواجِبِهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُكْتَتِبِينَ .

اِتَّكَلَ كُلُّ واحِدٍ عَلَى الْآخَرِ .

اِنْعَكَسَتِ الْآيَةُ : أَرَدْنا إِرْضاءَ الْوالِي فَأَغْضَبْناهُ .

خُتِمَ الْحَفْلُ بِمَهْزَلَةٍ فاضِحَةٍ : بِرْمِيلَ ماءٍ كانَتْ هَدِيَّتُنا ، لا بِرْمِيلَ عَسَلٍ .

٩ — أَثَرٌ عَكْسِيٌّ

تَرَكَتِ الْهَدِيَّةُ الزَّائِفَةُ فِي نَفْسِ الْوالِي ـ مُنْذُ ذٰلِكَ الْيَوْمِ ـ أَسْوَأَ الْأَثَرِ.
كانَتْ سِيرَتُهُ مَعَنا ـ كَما كانَتْ سِيرَتُنا مَعَهُ ـ مِنْ أَقْبَحِ السِّيَرِ .

دارَ الزَّمانُ دَوْرَتَهُ . ماتَ الْوالِي مُنْذُ أَعْوامٍ ماتَ كَثِيرٌ مِمَّنْ شَهِدُوا الْحَفْلَ . لَمْ تَمُتِ الْقِصَّةُ بِمَوْتِ أَصْحابِها .

بَقِيَتْ ـ إِلَى الْيَوْمِ ـ حَدِيثَ مَجالِسِنا وَأَسْمارِنا . لَنْ تَذْهَبَ الْقِصَّةُ بِمَوْتِنا . سَتَبْقَى الْقِصَّةُ عِبْرَةً وَمَوْعِظَةً لِمَنْ بَعْدَنا .

(١) حب النفس . (٢) المئات .

١٠ — الْعَظائِمُ والصَّغائِرُ

وَلَدَيَّ الْعَزِيزَيْنِ :

كانَ لِهٰذا الْحادِثِ ـ فِي قُلُوبِنا ـ أَعْجَبُ الْأَثَرِ .

طالَما قُلْتُ لِنَفْسِي :

« لَوْ بَذَلَ[١] كُلُّ إِنْسانٍ جُهْدَهُ ، وَصَدَقَ وَعْدَهُ ، لَتَحَقَّقَتْ أَحْلامُ النَّاسِ ، وَظَفِرُوا[٢] ـ مِنَ السَّعادَةِ والْهَناءِ ، بِما يُبْهِجُ[٣] نُفُوسَهُمْ وَيُرْضِيهِمْ ، وَيُحَقِّقُ الْبَعِيدَ مِنْ أَمانِيهِمْ .

كُلُّ ما فِي الْحَياةِ ـ مَهْما يَكُنْ عَظِيمَ الْخَطَرِ[٤] ـ يَتَأَلَّفُ[٥] مِنْ أَشْياءَ غايَةٍ فِي الضَّآلَةِ[٦] . »

لا عَجَبَ فِي هٰذا ، يا وَلَدَيَّ !

أَنْعِما النَّظَرَ فِي هٰذِهِ الْبِحارِ الْواسِعَةِ . أَتَعْرِفانِ : مِمَّا تَأَلَّفَتْ[٧] ؟

اِرْجِعا الْبَصَرَ كَرَّةً أُخْرَى[٨] .

أَلَيْسَتِ الْبِحارُ الْواسِعَةُ الَّتِي تُحِيطُ الْيابِسَةَ كُلَّها ، مَجْمُوعَةً مِنْ قَطَراتٍ مِنَ الْماءِ ، مُتَناهِيَةٍ فِي الصِّغَرِ ، اجْتَمَعَتْ واحِدَةً إِلَى جانِبِ أُخْرَى ؟

تَأَمَّلا فِي هٰذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي تَمْشِيانِ عَلَيْها .

أَتَدْرِيانِ[٩] : مِمَّ تَأَلَّفَتْ ؟

(١) أعطى . (٢) حازوا . (٣) يسر .
(٤) كبير الشأن ، جليل القدر . (٥) يجتمع . (٦) متناهية فى الصغر
(٧) تجمعت . (٨) مرة ثانية . (٩) أتعرفان .

مِنْ ذَرَّاتٍ[١] مِنَ التُّرابِ والْحَصَى تَجَمَّعَتْ ! أَلَيْسَ كَذٰلِكَ ؟

أَطِيلا التَّأَمُّلَ فِي هٰذِهِ الْأَحْقابِ[٢] الَّتِي مَرَّتْ بِعالَمِنا الْأَرْضِيِّ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ . مِمَّ تَأَلَّفَتْ ؟

مِنْ ثانِيَةٍ تَمُرُّ فِي إِثْرِ[٣] ثانِيَةٍ .. حَتَّى إِذا بَلَغَتِ السِّتِّينَ ، تَأَلَّفَتْ مِنْها دَقِيقَةٌ ... ثُمَّ ماذا ؟

مَرَّتِ الدَّقائِقُ ، واحِدَةً تِلْوَ[٤] الْأُخْرَى ، حَتَّى إِذا بَلَغَتِ السِّتِّينَ ، تَأَلَّفَتْ مِنْها ساعَةٌ مِنَ الزَّمانِ كامِلَةً .

مِنَ السَّاعاتِ تَأَلَّفَ الْيَوْمُ . مِنَ الْأَيَّامِ تَأَلَّفَ الْأُسْبُوعُ . مِنَ الْأَسابِيعِ تَأَلَّفَ الشَّهْرُ . مِنَ الشُّهُورِ تَأَلَّفَتِ الْأَعْوامُ[٥] . مِنَ السِّنِينَ تَأَلَّفَتِ الْأَحْقابُ[٦] .

١١ — أَيَّامُ التَّحْصِيلِ

أَيُّها الْعَزِيزانِ : هٰذِهِ الْأَيَّامُ الَّتِي تَقْضِيانِها فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَتَحْصِيلِهِ . كَيْفَ تَنْتَهِي إِذا تَهاوَنْتُما – لا قَدَّرَ اللهُ – فِي الدَّرْسِ والتَّحْصِيلِ لَحْظَةً بَعْدَ أُخْرَى ، وَساعَةً بَعْدَ ساعَةٍ ؟

هٰذِهِ السَّاعاتُ الَّتِي تَبْذُلانِها[٧] فِي طَلَبِ الْعِلْمِ ، يَتَأَلَّفُ مِنْ مَجْمُوعِها – مَتَى كَبِرْتُما – ما يُمَيِّزُكُما[٨] عَنْ غَيْرِكُما مِنْ أَبْناءِ عَصْرِكُما ، بِما تُحَصِّلانِ مِنْ ثَقافَةٍ واسِعَةٍ ، وَخِبْرَةٍ بارِعَةٍ ، وَعِلْمٍ شامِلٍ ، واطِّلاعٍ كامِلٍ .

(١) أجزاء صغيرة . (٢) الأزمان والعصور الطويلة . (٣) عقب .
(٤) تتبع . (٥) السنون . (٦) العصور . (٧) تنفقانها . (٨) يفردكما .

الْبَحْرُ الْعَظِيمُ يَتَأَلَّفُ مِنَ الْقَطَراتِ الصَّغِيرَةِ .

الزَّمَنُ الطَّوِيلُ مِنَ اللَّحَظاتِ الْقَصِيرَةِ .

بِرْمِيلُ الْعَسَلِ – أَوْ بِرْمِيلُ الْماءِ – مِنْ فِنْجانَةٍ صَغِيرَةٍ ، تَتْلُوها فِنْجانَةٌ صَغِيرَةٌ .

لَوْ مَنَحَ كُلُّ إِنْسانٍ مِنَّا أَحَدَ الْفُقَراءِ الْبائِسِينَ قَلِيلًا مِنْ عَطْفِهِ وَعِنايَتِهِ : إِذَنْ أَصْبَحَتِ الْحَياةُ جَنَّةً وادِعَةً[١] . إِذَنْ تَبَدَّلَ شَقاؤُهُمْ سَعادَةً ، وَآلامُهُمْ هَناءَةً وَرَغادَةً[٢] ، وَسُهادُهُمْ[٣] غُمْضًا[٤] ، وَشَظَفُهُمْ[٥] خَفْضًا[٦] وَدَعَةَ[٧] عَيْشٍ .

١٢ — خاتِمَةُ الْقِصَّةِ

لَنْ يَخْطُرَ بِبالِكُما – إِنْ شاءَ اللهُ – أَنْ تَقَعا فِيما وَقَعْتُ فِيهِ مِنْ خَطَإٍ ، حِينَ أَصْغَرْتُ[٨] مِنْ شَأْنِ الْفِنْجانَةِ ؛ فَوَقَعَ ما لَمْ يَكُنْ فِي الْحِسْبانِ[٩] .

كانَتْ هٰذِهِ الْقِصَّةُ – أَيُّها الْعَزِيزانِ – أَبْلَغَ دَرْسٍ وَعَيْتُهُ[١٠] فِي بَدْءِ[١١] شَبابِي . أَدْرَكْتُ مَغْزاهُ ، فَلَمْ أَنْسَهُ طُولَ الْحَياةِ .

أَرْجُو أَنْ يَكُونَ لَكُما فِي هٰذِهِ الْقِصَّةِ – كَما كانَ لِي فِيها – عِبْرَةٌ وَتَذْكِرَةٌ ، وَمَوْعِظَةٌ وَتَبْصِرَةٌ !

(١) هادئة . (٢) طيب عيش . (٣) سهرهم . (٤) نوما .
(٥) ضيق عيشهم . (٦) خصبا ولينا . (٧) سعة .
(٨) احتقرت واستهنت . (٩) الظن . (١٠) حفظته . (١١) أول .

وَلَدَيَّ العَزِيزَيْنِ :

مُنْذُ أَيَّامٍ حَدَثَتْ مُصادَفَةٌ عَجِيبَةٌ .

ضَمَّنِي مَجْلِسٌ حافِلٌ بِصَفْوَةٍ مِنْ عِلْيَةِ القَوْمِ ، وَسَراةِ المَدِينَةِ .

دارَ الحَدِيثُ عَنْ هٰذِهِ القِصَّةِ : قِصَّةِ « بِرْمِيلِ العَسَلِ » .

كانَتْ مَنْقُوشَةً فِي قُلُوبِنا ، ماثِلَةً فِي خَواطِرِنا ، بَعْدَ أَنْ مَضَى عَلَيْها قُرابَةُ رُبْعِ قَرْنٍ . تَمَثَّلْناها كَأَنَّما حَدَثَتْ أَمْسِ .

* * *

تَسْأَلانِ : أَيُّ مُناسَبَةٍ أَثارَتْها ؟

أَثارَها صَدِيقِي « أَبُو أُسامَةَ » :

عَجِيبَةٌ شَهِدَها مُنْذُ أَيَّامٍ ، أَعادَتْ إِلَى ذاكِرَتِهِ ما شَهِدَهُ مُنْذُ أَعْوامٍ .

كانَ مُحَدِّثًا بارِعًا ذَكِيًّا . قالَ :

« فِي ضاحِيَةِ المَدِينَةِ : كانَتْ بائِعَةُ اللَّبَنِ العَجُوزُ ، تَعِيشُ فِي كُوخِها الصَّغِيرِ ، عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ سَفْحِ الجَبَلِ .

كانَتْ تَعِيشُ مَعَ بَقَرَتِها الحَلُوبِ : فِي الكُوخِ سَكَنُها ، وَمِنَ البَقَرَةِ رِزْقُها ! تَبِيعُ لَبَنَ البَقَرَةِ كُلَّ صَباحٍ ، وَتَشْتَرِي بِهِ ما تَحْتاجُ إِلَيْهِ مِنْ مَأْكَلٍ وَمَلْبَسٍ .

ذاتَ يَوْمٍ : وَسْوَسَ لَها الشَّيْطانُ .

زَيَّنَ لَها أَنْ تَزِيدَ فِي رِبْحِها ، دُونَ أَنْ يَشْعُرَ أَحَدٌ بِفِعْلِها .

قالَتْ لِنَفْسِها : « ماذا عَلَيَّ إِذا أَضَفْتُ بِضْعَ قَطَراتٍ مِنَ الماءِ إِلَى كُلِّ رِطْلٍ أَبِيعُهُ مِنَ الحَلِيبِ ؟! »

* * *

قالَ أَحَدُ الحاضِرِينَ : « كَذٰلِكَ قالَ كُلُّ واحِدٍ مِنَّا ، حِينَ وَسْوَسَ لَنا الشَّيْطانُ أَنَّ فِنْجانَةَ الماءِ لَنْ تَضُرَّ . »

قالَ آخَرُ : « تَكَشَّفَتِ النَّتِيجَـةُ ، فَإِذا كُلُّ ما فِي البِرْمِيلِ ماءٌ ! »

قالَ ثالِثٌ : « شَتَّانَ بَيْنَ النَّتِيجَتَيْنِ ! كانَ خِداعُنا مَفْضُوحًا ؛ لٰكِنَّ خِداعَ العَجُوزِ ظَلَّ سِرًّا مَسْتُورًا . »

قالَ رابِعٌ : « إِذا أَفْلَحَتِ العَجُوزُ فِي إِخْفاءِ سِرِّها عَنْ بَعْضِ النَّاسِ ، فَلَنْ تُفْلِحَ فِي إِخْفائِهِ عَنْ خالِقِنا : العالِمِ بِخافِيَةِ الصُّدُورِ . هَيْهاتَ أَنْ تُفْلِتَ مِنْ عِقابِ اللهِ ! »

قالَ خامِسٌ : « عُذْرًا ـ يا « أَبا أُسامَةَ » ـ إِذا شَغَلَنا الحِوارُ عَنْ سَماعِ بَقِيَّةِ حَدِيثِكَ الشَّائِقِ . »

قُلْتُ : « ما أَشْوَقَنا إِلَى سَماعِ بَقِيَّةِ القِصَّةِ ! »

* * *

اِسْتَأْنَفَ «أَبُو أُسامَةَ» قائِلًا: «رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي قُبَيْلَ الْأَصِيلِ.

ما إِنْ رَآنِي وَلَدِي الصَّغِيرُ، حَتَّى ابْتَدَرَنِي قائِلًا:

«أَعَرَفْتَ - يا أَبِي - ما حَلَّ بِبائِعَةِ اللَّبَنِ لَيْلَةَ أَمْسِ؟»

سَأَلْتُهُ: «هَلْ أَصابَها مَكْرُوهٌ؟»

قالَ: «أَغْرَقَها السَّيْلُ، كَما أَغْرَقَ بَيْتَها وَبَقَرَتَها.

أَتَعْرِفُ: مِمَّ تَأَلَّفَ ماءُ السَّيْلِ الَّذِي أَغْرَقَ الْمَرْأَةَ والْبَيْتَ والْبَقَرَةَ جَمِيعًا؟»

قُلْتُ: «تَأَلَّفَ مِمَّا يَسْقُطُ عَلَى الْجَبَلِ مِنَ الْأَمْطارِ.»

قالَ الطِّفْلُ:

«كَذٰلِكَ يَقُولُ النَّاسُ، وَكَذٰلِكَ تَقُولُ أَنْتَ!»

سَأَلْتُهُ: «أَتَعْرِفُ سَبَبًا آخَرَ؟»

قالَ فِي ثِقَةٍ وَحَماسَةٍ:

«أَنا وَحْدِي أَعْرِفُ.

أَنا أَعْرِفُ - يا أَبِي - مِمَّ تَأَلَّفَ السَّيْلُ.

بَعْضُ النَّاسِ يَقُولُ: إِنَّها كانَتْ تَمْزُجُ لَبَنَ بَقَرَتِها بِالْماءِ، قَبْلَ أَنْ تَبِيعَهُ!»

قُلْتُ: «كَذٰلِكَ كانَتْ.»

قالَ: «مَتَى عُرِفَ السَّبَبُ، بَطَلَ الْعَجَبُ.»

* * *

اِشْتَدَّ إِعْجابِي بِما يَقُولُ الطِّفْلُ.

أَرَدْتُ أَنْ يَسْتَرْسِلَ فِي حَدِيثِهِ الشَّائِقِ.

قُلْتُ: «ماذا تَعْنِي؟ أَفْصِحْ عَنْ مُرادِكَ.»

قالَ: «فِي هٰذِهِ الْمَرَّةِ لَمْ يَتَأَلَّفِ السَّيْلُ مِنْ قَطَراتِ الْأَمْطارِ.»

قُلْتُ: «مِمَّ تَأَلَّفَ إِذَنْ؟»

قالَ: «مِنْ قَطَراتِ الْماءِ الَّتِي كانَتْ تُضِيفُها فِي السَّنَواتِ الْأَخِيرَةِ إِلَى ما تَحْلُبُهُ كُلَّ صَباحٍ:

تَجَمَّعَتْ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَأُسْبُوعًا بَعْدَ أُسْبُوعٍ، وَشَهْرًا بَعْدَ شَهْرٍ، وَعامًا بَعْدَ عامٍ.

تَأَلَّفَ مِنْها سَيْلٌ عَرِمٌ[1]، أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَى بَيْتِها فِي مُنْتَصَفِ لَيْلَةِ أَمْسِ؛ فَأَغْرَقَهُ، وَأَغْرَقَها، وَأَغْرَقَ بَقَرَتَها.»

عَجِبْتُ لِذَكاءِ الطِّفْلِ، كَما أُعْجِبْتُ بِخَيالِهِ الْخَصِيبِ.

أَقْبَلْتُ عَلَيْهِ أُرَبِّتُ كَتِفَيْهِ، وَأَنا أَقُولُ:

«بارَكَ اللهُ فِيكَ، يا وَلَدِي.

شاءَ الْعَدْلُ الْإِلٰهِيُّ أَنْ يَكُونَ الْجَزاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ!»

* * *

(1) لا يطاق.

الْتَفَتَ إِلَيْنا مُحَدِّثُنا البارِعُ قائِلًا :

« جَلَسْتُ أَسْتَعِيدُ ما دارَ بَيْنِي وَبَيْنَ وَلَدِي مِنْ حَدِيثٍ شائِقٍ .

قَفَزَتْ إِلَى خاطِرِي قِصَّةُ « بِرْمِيلِ الْعَسَلِ » ، أَوْ عَلَى الْحَقِيقَةِ : بِرْمِيلِ الْماءِ الَّذِي أَهْدَيْناهُ إِلَى الْوالِي ، مُنْذُ رُبْعِ قَرْنٍ مِنَ الزَّمانِ .

هٰكَذا تَتَأَلَّفُ الْعَظائِمُ مِنَ الصَّغائِرِ - كَما تَرَوْنَ - أَيُّها الصِّحابُ !

ما أَقْرَبَ الشَّبَهَ بَيْنَ ما حَدَثَ لِصاحِبَةِ الْبَقَرَةِ مُنْذُ أَيّامٍ ، وَما حَدَثَ لَنا مَعَ الْوالِي مُنْذُ أَعْوامٍ ! »

محفوظات

١ — حِكْمَةٌ مِنَ الشَّرْقِ :

صِغارُ الْأَشْياءِ

مُنْذُ قَرابَةِ أَلْفِ عامٍ : قالَ الشّاعِرُ الْعَرَبِيُّ الْعَظِيمُ « أَبُو الْعَلاءِ الْمَعَرِّيُّ » :

« الْعَمَلُ - وَإِنْ قَلَّ - يَسْتَكْثِرُ ، إِذا اتَّصَلَ وَدامَ .
لَوْ نَطَقْتَ - كُلَّ يَوْمٍ - لَفْظَةَ سُوءٍ[1] ،
لَاسْوَدَّتْ صَحِيفَتُكَ فِي رَأْسِ الْعامِ .
وَلَوْ كَسَبْتَ - كُلَّ يَوْمٍ - حَسَنَةً ،
عُدِدْتَ - بَعْدَ زَمَنٍ - مِنَ الْأَبْرارِ[2] .
إِنَّ الْيَوْمَ ائْتَلَفَ مِنَ السّاعِ[3] .
والشَّهْرَ اجْتَمَعَ مِنَ الْأَيّامِ ،
والسَّنَةَ مِنَ الشُّهُورِ ،
والْعُمْرَ يُسْتَكْمَلُ[4] بِالسِّنِينَ .

(١) كلمة لا يحسن بك أن تقولها .
(٢) أصبحت واحدا من الأخيار الصالحين .
(٣) الساعات . (٤) يتمّ .

الرَّجُلُ مَعَ الرَّجُلِ عُصْبَةٌ(١) .

والشَّعْرَةُ مَعَ الشَّعْرَةِ ذُؤابَةٌ(٢) .

الْحَجَرُ فَوْقَ الْحَجَرِ جِدارٌ(٣) .

النَّخْلَةُ إِلَى النَّخْلَةِ حائِشٌ(٤) .

الْمسافَةُ الشَّاقَّةُ تُطْوَى(٥) بِالْخَطْوِ الْقَصِيرِ ، كَما يُطْوَى الْعُمْرُ بِالْأَنْفاسِ(٦) .

نَفَسٌ - بَعْدَ مِثْلِهِ - يَتَقَضَّى فَتَمُرُّ الدُّهُورُ والْأَحْيانُ ! »

٢ — حِكْمَةٌ مِنَ الْغَرْبِ :

قالَ أَحَدُ شُعَراءِ الْغَرْبِ :

« قَطَراتُ الْمِياهِ ، مِنْها مُحِيطٌ

وَصِغارُ الْحَصَى ، تُكَوِّنُ أَرْضا .

وَدَقِيقاتُنا تُؤَلِّفُ دَهْراً ،

بَعْدَ دَهْرٍ - فِي إِثْرِهِ - يَتَقَضَّى .

وَقَلِيلُ الْحَنانِ والْحُبُّ مِمّا

يَجْعَلُ الْأَرْضَ ، جَنَّةَ الْخُلْدِ ، خَفْضا »

(١) جماعة . (٢) ضفيرة مرسلة من الشعر .
(٣) حائط . (٤) جماعة من النخل . (٥) تقطع .
(٦) كما تقضى أعمارنا نفسا بعد نفس .

الشركة التونسية للتوزيع
5 شارع قرطاج - تونس